

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

من المسرح العالمي

الطبعة الثانية

حالة طوارئ

ألبير كامي

العدد الثامن

مارس 2009

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تـــألـــيـــف:

ألبـــيـــر كـــامي

ترجمة وتقديم:

د. كوثر عبدالسلام البحيري

مـــراجـــعـــة:

يحـــيـــى حـــقـــي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

من

المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

حالة طوارئ
تأليف: ألبير كامي
ترجمة وتقديم: د. كوثر عبدالسلام البحيري
مراجعة: يحيى حقي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩ / الطبعة الأولى ١٩٨٩
دولة الكويت

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 264 - 7

رقم الإيداع: (٢٠٠٨/٠٠٦)

حالة طوارئ

ألبير كامي

الفهرس



مقدمة
بقلم المترجمة

ولد ألبير كامي في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ في «مندوفي»، وهو حي من أحياء مدينة قسطنطينة الجزائرية، وتم تعميده في هذه المدينة. وكان والده عاملا في إحدى شركات النبيذ، ومن أصل إلزاسي ونشأ نشأة مسيحية. أما أمه كاترين سانتيس، وهي من أصل إسباني، فهي كاثوليكية لاتمارس طقوس دينها. وكانت جدته التي تولت تربيته لفترة من صباه وكانت صاحبة تأثير عليه، كاثوليكية تقية.

وقد التحق كامي بإحدى المدارس الحكومية خلال الفترة ١٩١٨ - ١٩٢٣، وتابع الدراسة بعد ذلك مواصلا دراسته العليا تحت إشراف الأستاذ جان جرونييه. ومن هنا بدأ احتكاكه بالفلسفة التي حصل على الليسانس فيها من جامعة مدينة الجزائر، وواصل دراسته العليا، فحصل على دبلوم في الدراسات اليونانية والمسيحية، وخصوصا أفلوطين والقديس أوغسطين، كما درس باسكال وكيركجارد. وفي هذه الفترة اتصل بالحزب الشيوعي واعتنق الآراء اليسارية. غير أنه لم يلبث أن ترك هذا الحزب، وشارك بدلا من ذلك في نشاط الحزب التحرري الوطني في الجزائر. وفي عام ١٩٣٨ عمل كامي محررا في جريدة «الجزائر جمهورية». ولكنه غادر الجزائر بعد ذلك ليعمل في باريس في صحيفة «باري - سوار» فترة قصيرة، عاد بعدها إلى الجزائر مرة ثانية ليعمل بالتدريس في مدينة وهران، وبدأت علاقته بجان بول سارتر عام ١٩٤٤. ومنذ ذلك التاريخ حفلت حياته بالإنتاج الأدبي الغزير المتتابع حتى مقتله في حادث سيارة عام (١٩٦٠).

ونورد الآن طرفا من أهم أعمال كامي، في عام ١٩٤٠ كتب قصة **الغريب**، وانتهى في العام التالي من كتابة **أسطورة سيزيف**، وفي عام ١٩٤٥ أخرجت له مسرحية **كاليجولا**، وبعد عامين نشر قصة **الطاعون**. وفي عام ١٩٤٨ كتب مسرحية **حالة طوارئ** التي نقدم لها. وكذلك مسرحية **العادلون**. وفي العقد

الأخير من حياته نشر ثلاثة كتب هي **الصيف، والسقطة، والمنفى والمملكة.** وحصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٧.

لم يكن كامي فيلسوفا ولا معتنقا لنظرية فلسفية معينة، بل كان مفكرا له أسلوبه الذاتي. كما لم يكن من تلامذة جان بول سارتر ولا من الذين يعتنقون المذهب الوجودي. ولم تكن العلاقة بينهما سوى علاقة تفاهم فكري دام بعض الوقت، ثم ما لبث أن بددته الأيام وفصمت عراه الاختلافات الفكرية.

ولعل من أهم النواحي التي تثير انتقاد المعاصرين في ألبيركامي موقفه من الإيمان أو طريقة تفهمه لوجود الخالق. وكما أسلفنا فقد نشأ كامي نشأة دينية بعض الشيء، ولكنه ما كاد يشب عن الطوق حتى تخلى نهائيا عن إيمانه. ومع ذلك فقد كان من أكثر الكتاب قدرة على إثارة الإعجاب بالمخلوقات الخارقة وبالطبيعة التي هي من أول معجزات الخالق.

ولعل من أهم الأفكار التي حدت كامي على أن يبتعد عن الإيمان هي فكرة عذاب الأبرياء ولاسيما الأطفال في الكوارث الطبيعية التي لا ذنب لأحد فيها. ومن أهم هذه الكوارث الطبيعية الأوبئة وهذه الفكرة ليست جديدة في الأدب الفرنسي، ومن قبل أثارها فولتير في قصيدته الشعرية المعروفة «مأساة لشبونة»، حيث تحدث عن الزلزال الذي أصاب مدينة لشبونة في عهده وقتل الكثير من الأبرياء.

ويرى كامي أنه لو تفشى وباء مثل الطاعون في مدينة ما وأخذ يفتك بالناس فتكا دون ما ذنب من أحد لصعب على العقل أن يصدق أن هـذا انتقام من السماء لأن أهل المدينة قد حادوا عن الصواب واندفعوا وراء الغواية والشهوات. ولعل من أجمل ما كتب، تلك الصفحات التي تنبض بالألم في رواية «**الطاعون**» والتي يصف فيها العذاب الهائل الذي حاق بطفل أصيب بالطاعون، حتى أن القسيس الذي حضر احتضاره شعر بإيمانه وكأن صاعقة قد زلزلته زلزالا.



وكان لهذه الفكرة من التأثير على نفس كامي ما جعله يعالجها مرتين، مرة في روايته **الطاعون**، ومرة أخرى في مسرحيته **حالة طوارئ** [1] التي نقدم هنا ترجمة لها.

وقد اختار كامي ميدانا لروايته **الطاعون** ميناء وهران الجزائري. أما في مسرحيته فقد اختار ميناء قادش الإسباني الذي لم يعد له وجود. ويقصد الكاتب من ذلك عدم تحديد زمان الرواية مكتفيا بأنه أي زمان في الماضي. وعلى الرغم من ذلك فثمة تفصيلات قليلة قد نستدل منها على أن زمان الرواية هو العصر الأندلسي.

تدور أحداث المسرحية، كما أسلفنا، في ميناء قادش الأندلسي، ولعل أول تشابه بين رواية **الطاعون** والمسرحية هو أن الأحداث في الحالتين تدور في أحد الموانئ ولعل تفسير ذلك أن الطاعون غالبا ما يبدأ تفشيه في الموانئ وينقل عن طريق الفئران التي تعيش في السفن حين ترسو السفينة على الميناء، وينزل أحد الفئران حاملا الميكروب إلى الميناء.

وثمة تفسير آخر لهذا التشابه هو شدة العذاب الذي يعانيه مجتمع الميناء من العزلة التي تفرض عليه في حالة الوباء، وهو الذي اعتاد الحياة منفتحا متصلا دواما بالعالم الخارجي.

فرض وباء الطاعون إذن على سكان ميناء قادش بعد مرور أحد النجوم المذنبة بالمدينة، وهو نذير شر كان عادة يتبعه ظهور وباء الطاعون. وعلى الرغم من أن أهل قادش لم يكونوا يعيشون تحت حكم مثالي، بل كان حاكمهم أنانيا لايفكر إلا في ملذاته الخاصة، وينفر من أي تغيير يستتبع مجهودا، فقد كانوا سعداء بحريتهم، لايرضون منها بديلا ويتحملون في سبيل الاحتفاظ بها كل رذائل الحكم الذي كان يرسخ على أنفاس المدينة.

---

(١) الأصل الفرنسي للعنوان هو L'Etat de Siege والترجمة الحرفية له هي «حالة حصار»، ولكننا فضلنا ترجمته إلى «حالة طوارئ» لأن المسرحية تصور مجتمعا كان في ظروف غير طبيعية طرأت عليه، لاتلبث أن تزول فيعود المجتمع إلى حالته العادية.



وما كادوا يشعرون بأن أبواب المدينة قد أغلقت عليهم الواحد تلو الآخر حتى كان همهم هو الجري ناحية البحر محاولين الهرب. وكانوا وسط الوباء، وبعد أن سيطر المرض على حياتهم وكيف طريقة تفكيرهم، لايهفون إلا إلى النسمة الرطبة التي تأتي من ناحية البحر وإلى السفينة التي تمخر عبابه حاملة من على متنها إلى أركان العالم حيث يستنشقون عبير الحرية في الفضاء العريض.

ويقهر الطاعون سكان المدينة ويخضعهم لسلطانه وجبروته، وتدين له الجباه، ويضع الشعب السدادات في الأفواه حتى لا ينبس ببنت شفة. ويستفيد الكثير من الانتهازيين من هذ الظروف التعسة مثل القاضي كازادو. ولكن هل يستطيع أي وباء أو أي مصيبة أن تقهر إرادة الإنسان الحر وتقضي عليه قضاء لا رجعة فيه ؟ هذا ما يتعارض مع فلسفة ألبير كامي، فهو يؤمن بالإنسان وبأنه يستطيع أن يقهر كل شيء لو سيطر على إرادته سيطرة تامة. فإذا توصل إلى ذلك فليس ثمة قوة في الوجود تستطيع السيطرة عليه أو الحد من حريته وإرادته.

وهذه الفلسفة تتمثل في دييجو بطل المسرحية، فما هو الدور الذي أداه دييجو؟ إنه يمثل الصفوة من الجنس البشري التي لاتقبل الخضوع ولا الخشوع وتؤمن بنفسها إيمانا تاما. ولقد رفض دييجو أن يخضع للطاعون الذي حاول قتل إرادته بجميع الوسائل. وعلى الرغم من إصابته به فحينما رأى الطاعون أن فردا واحدا وسط قطعان البشر التي ذلت وخضعت - فردا واحدا يرفع الرأس - أدرك أن نهايته قد اقتربت.

وفعلا ينتصر دييجو ويضرب أعظم الأمثال لجموع الناس التي كانت قد فقدت كل أمل في تنفس عبير الحرية. غير أنه كان لابد من أن يدفع ثمن انتصاره غاليا.. فإما أن يعيش هو، أو تعيش فيكتوريا أحب الناس إلى قلبه. ومثله مثل جميع الأبطال المتميزين الذين يأتون إلى الأرض لضرب أمثلة البطولة والعظمة، ويكونون كالذبالة التي تضيء للناس وهي تحترق، يفضل دييجو أن يموت هو وتعيش فيكتوريا.

وهكذا ندرك أن الطاعون بالنسبة إلى كامي لايعني الوباء في حد ذاته، بل المصائب الكبرى التي قد تشمل الديكتاتورية والاستعمار وقهر الإنسان للإنسان.



وهو يرى أنه مهما كان المصاب جللا فلا بد له من نهاية. ونهايته لا تأتي إلا بالإرادة وتمسك الإنسان بحريته وإيمانه بها. وهو يرى أن ثمة طائفة ممتازة ومتميزة من البشر تولد على الأرض بين الحين والحين لتنشر هذه الفلسفة وتكون للناس نبراسا. وإذا كانت الأغلبية العظمى من الناس تدخل في نطاق القطيع أو السائمة مسلوبة الإرادة التي تجر إلى مصيرها جرا فإنه يكفي وجود فرد واحد من هذه الطبقة الممتازة، مثل الدكتور برنار ريو في روايته **الطاعون**، ومثل دييجو في مسرحيته **حالة طوارئ**، ليوقظها ويكون هو نفسه مثلها الأعلى، ويعلمها كيف تحترم بشريتها وتتمسك بإرادتها وتتخطى الصعاب وتسير على الأشواك في سبيل تحرير إرادتها.

تلك هي الفلسفة العظمى التي نادى بها ألبير كامي في رواية **الطاعون**، وعززها في مسرحية **حالة طوارئ**، فالطاعون هو قمة البلاء. ووسط البلاء قد يفقد الإنسان إيمانه بنفسه ويطأطئ الرأس ويستسلم لمصير يعتقد أنه محتوم. ولكن كلما كان البلاء شديدا سنحت الفرصة لوجود الإنسان المنقذ. وتلك حقيقة من حقائق الطبيعة الكبرى. فالرسل ومن في مستواهم أو من يقرب من منزلتهم لايحلون في المجتمعات البشرية إلا حين يستشري البلاء ويعم الفساد. ويكفي ظهورهم ليبقى الإنسان شامخا بحريته وإرادته التي لو شاء لما استطاعت أي قوة على الأرض أن تنال منها شيئا.

فن كامي المسرحي

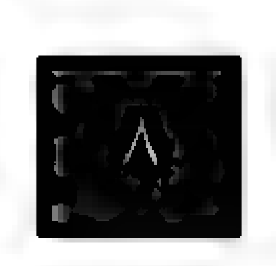
إن أكثر ما يميز كتاب القرن العشرين الفرنسيين كلهم، وفي جميع ألوان الأدب، هو البحث عن الجديد. ولقد كان ألبير كامي جديدا كل الجدة في جميع ما كتب، فحين أراد أن يكتب قصة صاغها في صورة مخالفة للشكل التقليدي الذي تعودناه من كتاب القصة، بل إنه لم يسمها قصة وفضل أن يطلق عليها كلمة «تأريخ» إيهاما للقارئ بأنه يسرد عليه أحداثا حقيقية عاشها يوما فيوما، وذلك في قصته المعروفة **الطاعون**، ولكننا لو تعمقنا بحث التكوين الهيكلي للطاعون لوجدنا على الفور أنها تحتوي على جميع مقومات القصة، ففيها البطل والبطلة (وإن كانت أقل أهمية)، وفيها العقدة أو قمة الأزمة، وفيها انفكاك العقدة في نهاية الرواية بخلاف الإطار العام وهو مدينة حل بها وباء الطاعون.



وكذلك الحال بالنسبة إلى مسرحية **حالة طوارئ**، فقد أراد ألبير كامي أن يعطيها تكوينا وحبكة مسرحية مختلفة تماما عن التكوين والحبكة الكلاسيكية، فلم يقسم مسرحيته إلى مشاهد ولا إلى فصول، فقد اعتدنا أن تكون المسرحية الكلاسيكية من خمسة فصول، ثم نحا المحدثون نحوا آخر بأن جعلوها من ثلاثة فصول، أو من فصلين أو من فصل واحد على أن يقسم الفصل إلى عدة مشاهد. أما كامي فقد قسم مسرحيته إلى ثلاثة أقسام تتوالى فيها المشاهد في وقت واحد تقريبا أو بالتبادل معتمدا على وسائل الإخراج الحديثة.

ويعتمد الإخراج الحديث على اتساع خشبة المسرح وتغيير الإضاءة فيها من مكان إلى مكان بسرعة فائقة، وبذا يمكن عرض عدة مشاهد في وقت واحد، من دون الحاجة إلى المسرح الدائري. فتارة تركز الإضاءة على السوق فنرى الشعب تمثله الجوقة ونرى السماك والعراف والعجوز الحيزبون والنشالين ... الخ. ثم تركز الإضاءة على بيت الحاكم فنرى الحاكم يحيط به قضاته ومستشاروه، وفجأة نلقى أنفسنا في بيت القاضي كازادو فنشاهده في عراك مع زوجته التي خانته ودست عليه ابنا ليس ابنه وهكذا، وكل هذا التغيير في المشاهد لايعتمد إلا على إظلام جزء من المسرح وتركيز الإضاءة على الجزء المراد عرضه.

ويفترض ألبير كامي في مسرحيته كذلك أنها تعتمد على الوسائل المتقدمة جدا في الإخراج، وذلك فيما يختص بالمذنب وظهوره تارة صغيرا وتارة كبيرا، تارة بعيدا وتارة قريبا، وكذلك الحال فيما يختص بالمؤثرات الصوتية. ولابد أن نلاحظ هنا أن ظهور مذنب أو إله في المسرح الفرنسي ليس جديدا، وكان يحدث حتى قبل المسرح الكلاسيكي لاسيما في الملاحم التي تعتمد على الإثارة والإدهاش والتي يسميها الفرنسيون èpopèes والتي كانوا يظهرون فيها الآلهة الميثولوجية والظواهر الطبيعية بوسائل فنية يسمونها: Deus ex machina . أي إظهار الآلهة بواسطة الآلات الخاصة، وغني عن القول أنها كانت وسائل تعتبر بدائية، إذا قيست بوسائل اليوم. وكذلك يستعين كامي في إخراج مسرحيته بالرياح الصناعية لأهمية الرياح في هذه المسرحية.





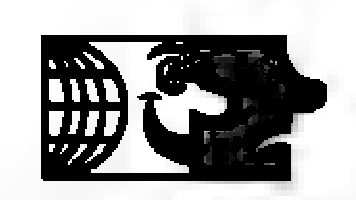
أما فيما يختص بالشخوص فقد تمسك ألبير كامي بفكرة البطل والبطلة، وهما دييجو وفيكتوريا، وربطهما برباط سام من الحب الذي جعل منه أجمل وأنبل شعور يمكن أن يطرق القلب البشري، والهدف الأسمى الذي لا يشعر الإنسان بأهميته الحيوية بالنسبة إليه وإلى حياته والمحيطين به، إلا حين يحرم منه، كما جعل منه العامل الذي يخفف جو الطاعون الثقيل من جهة، والذي يعيش آثاره الهدامة على النفوس والنواحي المادية من حياة الإنسان من جهة أخرى.

واستعار كامي صفة من صفات الملحمة حين جسد الطاعون وسكرتيرته في صورة رجل وامرأة، وأدخل العامل غير الطبيعي الذي يجعل السكرتيرة تشطب في دفترها اسما فيسقط إنسان ميتا في أي ركن من أركان المدينة.

وفيما عدا ذلك فقد انتقى كامي مجموعة من الشخوص يعتبر كل واحد منهم نموذجا أو نمطا لطائفة من طوائف هذا المجتمع، بحيث يكون الجميع معا صورة مصغرة للمجتمع كله، فنرى الحاكم وقضاته وحرسه، ونرى طبقة المفكرين ممثلة في دييجو وفيكتوريا، والشعب ممثلا في السوق العامة، وفيها نرى الصياد والعراف وبائعة العطارة وألوانا مختلفة ممن يرتادون السوق. أما نادا فهو الأبله السكير الذي تسيل مع ذلك الفلسفة والحكمة على لسانه كما تسيل الخمر، ويعتبر عنصرا مهما من عناصر الفكاهة والتخفف من ثقل جو الطاعون المقبض في هذه المسرحية. وعموم الشعب تمثله الجوقة كما أسلفنا.

أما الديكور فلابد أن يكون بسيطا غاية البساطة في مسرحية كهذه. ففي الخلفية نرى البحر وأمامه الرصيف تقريبا بصفة دائمة، فيما عدا المشاهد الداخلية مثل التي تدور في بيت القاضي كازادو وغيرها، ولايحتاج الأمر إلا إلى صورة خلفية للدلالة على مكان المشهد مثل قصر الحاكم أو مقر حارس المقبرة ... الخ. وهذه البساطة في الديكور من مستلزمات سرعة تغيير المشهد من مكان إلى مكان على المسرح، بحيث إذا عدنا إلى مكان ما مرتين كان المشهد في المرة الثانية غيره في المرة الأولى.

وألبير كامي من الكتاب الذين يعتبرون مجالهم الحقيقي في البحث والدراسة هو نفس الإنسان لا مظاهره المادية، وكل مظهر مادي له دلالة نفسية. في مسرحية



حالة طوارئ يدرس الكاتب عدة مشاعر إنسانية بعضها يهدم الإنسان فلا تقوم له قائمة، وبعضها - على العكس من ذلك - يبعث فيه الحياة ويسمو به إلى مصاف المعجزات. ومن المجموعة الأولى الكراهية والخوف والأنانية. وقد رأينا كيف تمكن الطاعون من السيطرة على المدينة ببث الكراهية بين الناس، وكيف أن الأنانية تجعل الفرد يرفض إعطاء لقمة من الخبز لفرد آخر، وكيف أن الخوف جعل دييجو يطيش صوابه ويهرب ولا يأبه بنشر العدوى لغيره عن طريقه، لولا أن ارتد إليه صوابه فيعود لإتمام رسالته.

أما المشاعر البناءة التي تسمو بالإنسان فهي الحب والتضحية، وقد تجسدا في هذه المسرحية في دييجو وفيكتوريا، فكل منهما يحب الآخر أكثر من نفسه، وكل منهما على استعداد للتضحية بحياته من أجل الآخر.

وفيما يختص بأسلوب كامي اللغوي في هذه المسرحية، نراه يحاول أن يعطي كل مجال اللغةَ التي تناسبه ويُنطق كل شخص من شخوصه باللغة التي يتكلم بها في واقع الحياة. فلغة الحاكم هي لغة التعالي والزهو والغرور، ولغة الشعب سواء على لسان رواد السوق أو الجوقة هي لغته في واقع الحياة، واهتماماته مادية أكثر منها معنوية تنحصر في الاحتياجات اليومية والشهوات الجنسية. وتتجلى قوة كامي اللغوية والتعبيرية، وطرافته في العثور على الجديد في الوصف والتعبير في أماكن كثيرة من المسرحية يبلغ فيها حد البلاغة الشاعرية النادرة. ويمتاز كامي بأنه يختار الفاظه بحيث تكون دلالة اللفظ في حد ذاتها شيئًا يسيرا بالنسبة إلى ما يخفى تحته من معان، ولذلك فالقارئ مضطر إلى أن يقرأ السطور وما بين السطور، وإلا فلن يبلغ فهمه للمسرحية الحد الذي ينشده المؤلف.

إلى أي لون من ألوان المسرحيات تنتمي مسرحيتنا هذه ؟ أهي تراجيديا (مأساة) أم كوميديا (ملهاة)، أم بين بين من ألوان التراجيديا / الكوميديا أو الميلودراما ؟

الواقع أن كامي - كما أسلفنا - اهتم بالبحث عن الجديد، شأنه في ذلك شأن جميع الكتاب المحدثين، ورفض رفضا تاما التقيد باللون الواحد في المسرحية الواحدة. فهي تجمع بين الألوان جميعا فإذا استشرى الطاعون وأخذت السكرتيرة



تحذف في مفكرتها وتسقط الأجساد تتوالى الواحد تلو الآخر، فنحن في جو المأساة أو الملحمة، أما إذا انتقلنا إلى السوق وتشاجرت العجوز مع بائع السمك فنحن في صميم جو الملهاة، وإذا تحدث نادا السكير بالحكمة سواء صراحة أو تلميحا، وأوضح للناس واقع أمورهم فنحن كذلك في جو الملهاة ذات الهدف الفلسفي.

ولعل أبلغ ما يقال في هذا ما يقوله ألبير كامي نفسه في الإخطار الذي نورده فيما يلي:

«إن مسرحية **حالة طوارئ** تعتبر من أجمل مسرحيات القرن العشرين وأعمقها، وقد بذل فيها مؤلفها جهدا فنيا ضخما يضمن لها حياة طويلة على مر الأزمان».

ونرجو أن يستفيد القارئ العربي من قراءتها أو رؤيتها على المسرح ويستفيد من جميع النواحي الفنية والفلسفية التي أراد الكاتب تقديمها.

❝ ❝ ❝



إخطار

في عام ١٩٤١ خطرت لصديقي بارو فكرة كتابة مسرحية حول موضوع الطاعون، وراود الموضوع نفسه كذلك أنطوان أرتو. وفي السنوات التي تلت ذلك بدا لبارو أنه من الأسهل في هذا الصدد اقتباس الكتاب الكبير «**مذكرات عام الطاعون**» لدانييل ديفو Danial Defoe، ووضع حينئذ تخطيطا هيكليا لإخراج هذا الكتاب.

وحين تبادر إليه أنني أوشك من جهتي على نشر قصة حول نفس الموضوع عرض علي أن يكتب الحوار حول هذا التخطيط الهيكلي. وكانت لي أنا أفكار أخرى، أهمها أنه كان يبدو لي من الأفضل طرح فكرة دانييل ديفو جانبا والعودة إلى الفكرة الأولى التي راودت بارو.

كان الأمر يتعلق، بصفة عامة، بكتابة قصة يستطيع أن يفهمها جميع المشاهدين في سنة ١٩٤٨ . مسرحية **حالة طوارئ** ما هي إلا تصوير لهذه المجادلة التي أعتقد - وتلك ناحية من نواحي ضعفي - أنها تستحق الاهتمام.

ولكن :

١ - ينبغي أن يكون واضحا أن **حالة طوارئ**، على الرغم مما قيل عنها، ليست بأي حال من الأحوال اقتباسا لروايتي.

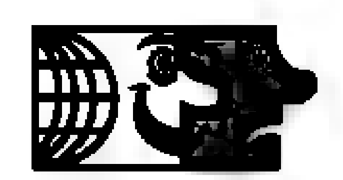
٢ - لا يتعلق الأمر معها بهيكل مسرحي تقليدي، ولكن بمسرحية هدفها الصريح هو خلط جميع ألوان التعبير المسرحي ابتداء من الحديث المنفرد العاطفي إلى المسرح الجماعي مع المرور بالمسرح الصامت والحوار البسيط والملهاة التهريجية «الفارس» Farce والأناشيد المرتلة.

٣ - إذا كان صحيحا إنني كتبت النص برمته فهذا لايمنع أن اسم بارو ينبغي أن يكون مقرونا باسمى، فله الحق في ذلك كل الحق. وإذا لم يكن بالمستطاع تنفيذ ذلك لأسباب بدت لي أهلا للتقدير فلابد لي من أن أقول بوضوح إنني مازلت مدينا لجان لوي بارو...

ألبير كامي

٢٠ نوفمبر ١٩٤٨





حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تأليف

ألبير كامي

ترجمة وتقديم

د. كوثر عبدالسلام البحيري

مراجعة

يحيى حقي

العنوان الأصلي للمسرحية :

ALBERT CAMUS

L'ÉTAT DE SIÉGE

Spectacle en trois parties



GALLIMARD

شخصيات المسرحية

الطاعون	La Peate
السكرتيرة	La Secretaire
نادا	Nada
فيكتوريا	Victoria
القاضي	Le Juge
زوجة القاضي	La femme du Juge
دييجو	Diégo
الحاكم	Le Gouverneure
قاضي البلدية	L' Alcade
نساء المدينة	Les femmes de la Cité
رجال المدينة	Les Hommes de la Cité
الحرس	Les Gardes
اللحاد	Le Condoyeur des Morts

أول عرض لها قدمته فرقة مادلين دينو وجان - لوي بارو يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ على مسرح مارييني.

القسم الأول



تقديم

افتتاحية موسيقية محورها نغمة رنانة متصلة تذكر بصفارة الإنذار. يرفع الستار. المسرح يسوده الظلام.

تنتهي الافتتاحية، ولكن نغمة الإنذار لاتختفي، وتظل تسمع وكأنها طنين آت من بعيد.

وفجأة من غيابة المسرح يبزغ من ناحية الغناء نجم مذنب ويتخذ مساره ببطء إلى ناحية الحديقة.

وترتسم تحت ضوء المذنب - كأنما على ستار لعبة خيال الظل - شخوص جدران مدينة إسبانية محصنة، وأناس عديدين تدير ظهورها للجمهور وتقف جامدة بلا حراك، الرؤوس مشرئبة نحو المذنب، والحوار يكاد يكون غير مفهوم كما لو كان همهمة مبهمة.

- إذن لو فني العالم.
- حسبك أيها الرجل، العالم قد ينقضي أجله، أما إسبانيا فهيهات أن تموت.
- حتى إسبانيا قد يجري عليها الموت.
- اجث على ركبتيك
- إنه مذنب نذير شر للعالم.
- لا لإسبانيا أيها الرجل، لا لإسبانيا.

ويستدير رأسان أو ثلاثة، ويتحرك شخص أو شخصان في حذر، ثم يستعيد الجميع وقفتهم الجامدة. حينئذ يشتد الطنين حدَّة، ويصبح خارقا للآذان ويتموج في نغمة موسيقية كأنه نطق بكلام له معنى وينطوي على التهديد، على حين يتضخم حجم المذنب بإفراط. وفجأة تند صرخة هائلة من امرأة، فتخرس النغمة الموسيقية وتعيد المذنب إلى حجمه المألوف وتهرب المرأة وهي تلهث، ويشيع الهرج والمرج في الميدان، ويزداد تحول الكلام في الحوار من اللغط إلى الهسيس، فتزداد قدرة الأذن على التقاطه وإن لم يتأت بعد فهمه.

- إنه علامة على الحرب.
- بكل تأكيد.



- لا علامة هو على شيء.
- الأمر يتوقف...
- كفى، إنه إنه الحر.
- حر مدينة قادش.
- كفى.
- ما أقوى صفيره.
- والأدهى أنه يصم الآذان.
- إنه طالع نحس رمى ظله على المدينة.
- (يتوجع) أي قادش، إن طالع نحس رمى ظله عليك.
- صه، صه.

يعود الناس فيركزون أنظارهم على المذنب، ويسمع في وضوح هذه المرة صوت ضابط من الحرس المدني.

ضابط الحرس

المدني : عودوا إلى منازلكم. لقد شاهدتم ما شاهدتم وهذا يكفي. إنه ضجيج للا شيء، هذا كل ما في الأمر. ضجة كبيرة بلا طائل، ما الذي جد ؟ إن قادش هي دائما قادش في نهاية الأمر.

صوت : ومع ذلك فتلك علامة. وليس ثمة علامات بلا مقتض.

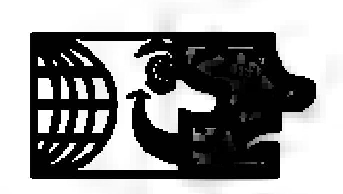
صوت : ربنا ياله من رب عظيم جبار.

صوت : الحرب وشيكة، هذا ما تقوله العلامة.

صوت : في عصرنا لم يعد أحد يؤمن بالعلامات أيها الأجرب، فمن حقنا أن لنا عقولا أذكى من أن تخطئ الفهم.

صوت : نعم، ولهذا تتصدع منا الرؤوس لكي نحسن فهم هذه العلاقة، نحن الآن بلا إدراك، شأننا شأن البهائم، غير أن البهائم يفرغ منها بالذبح.

الضابط : عودوا إلى منازلكم، فالحرب شغلتنا نحن لاشغلتكم.



نادا (بمضض) ليت قولـك كان صدقا، ولكـن كلا، فالضباط يموتون في فراشهم، أما طعنة السيف فلنا نحن.

صوت نادا – ها هو نادا، هو هو الأبله.

صوت أي نادا، أنت حقيق بأن يكون عندك العلم، قل لنا ما معنى هذا ؟

نادا (وهـو من ذوي العاهـات) إن ما أريد قولـه لكم لاتحبون سماعه وسـتتهكمون عليه. اسـألوا الطالب فهو سيصبح طبيبـا بعد قليل. أمـا أنا فأتحدث إلـى زجاجتي. (يرفع زجاجته إلى فمه)

صوت خبّرنا يا دييجو، ما عساه يريد أن يقول ؟

دييجو وما شأنك ؟ احتفظ بقلبك ثابتا. ويكفيك هذا.

صوت اسألوا ضابط الحرس المدني.

الضابط إن الحرس المدني يرى أنكم تخلون بالنظام العام.

نادا إن الحرس المدني محظوظ، فله أفكار بسيطة.

دييجو انظروا، إنه يطلع مرة أخرى.

صوت ربنا يا له من رب عظيم جبار.

(يعود الطنين من جديد والمذنب في دورته الثانية)

– أما من نهاية ؟ أما من اكتفاء ؟

– قادش.

– إنه يصفر.

– إنه طالع نحس.

– رمى ظله على المدينة.

– الزموا الصمت، الزموا الصمت.

وتدق الساعة الخامسة ويختفي المذنب ويطلع النهار.

نادا (يقهقه ضاحكا وهو يقتعد صوة ترقم طول الطريق)



اســمعوا إذن ما أقوله لكم، هكذا أنـا نادا نور هذه المدينة علما ومعرفة وابنها الســكير، ازدراء مني لكل شيء وتقززا من كل مجد، أنا الذي يســخر النــاس مني لأني احتفظت بحريـة مواجهتهم باحتقاري لهم، بعد هــذه العلامة التي هي عندي أشبه بالألعاب النارية يهمني أن أبادركم بتحذير أتبــرع به، ولا أســألكم عليه أجرا، اعلمــوا عني أننا الآن قــد وقعنا فــي النكبة التي تترصدنا، ويســتزاد مع مضي الزمــن افتراســها لنا. أنبهكم إلى أننا كنـا قد وقعنا فيها من قبل، ولكن من لها بمن يلحظها ســوى سكير مثلي، فما هو إذن موقفنا الآن ؟ على الرجال الحكماء منكم تبصيرنا بــه بحدس من مظنتهــم. أما أنا فقد اســتقر ذهني على رأي منــذ أمد بعيد، ولا زعزعة عندي لمبدأ أعتنقه. الحياة والموت سيان، والإنسان حزمة من نفس الحطب الذي يوقد للمحكوم عليهم بالموت حرقا.

صدقوني، ستصادفكم متاعب جمة، فإن هذا المذنب علامة شر، إنه يوقظكم من غفلتكم، فالخطر وشيك.

قد لا يبــدو هذا الخطر أهــلا للتصديق، وهــذا ما كنت أتوقعه منكــم، فمادمتم قد تناولتم وجباتكم الثلاث وأديتم فرصة عملكم ثماني ساعات، وأرضى الواحد منكم زوجته وضرّتها فقد تصورتم أن كل شــيء قد احتل موقعه اللازم لــه ضمن النظام الســائد. كلا، لم تجعلــوا مواقعكم وفق نظام، بل ضمن صفوف تنظيم، فتلزمون صفكم. والآن قد استقامت صفوفكم وارتسم الاستسـلام على وجوهكم. إذن قد نضجتم لكي تلتهمكم النكبة.

دعوني أيها الإخوان الطيبون، فقد فرغت من توجيه إنذاري إليكم وأرضيت ضميري. أما بقية الأمور فلا تشــغلوا بها فتصريفها في يد وقــوى تعلوكم، وأنتم تعلمون ماذا ينتظر منها، أنها قوى لا تتساهل.



القاضي كازادو : لا تجـدِّف يانـادا، أنت من قـديم تبيح لنفسـك أن تأثم بالتطاول على السماء.

نادا : أتراني أيها القاضي قد ألمحت إلى السماء في كلامي ؟
إنني على كل حال أقرها على جميع ما تفعل، هذا حكمي...

القاضي كازادو : إنهم الإباحيون الذين على شاكلتك هم الذين يجلبون علينا الإنـذارات السـماوية. ذلك لأنه في الواقـع إنذار، ولكنه موجه إلى جميع الذين فسـدت قلوبهم. ولتخشـوا جميعا عواقـب أوخم تتوالى، وادعوا السـماء أن تكفِّر خطاياكم، اجثـوا إذن على ركبكم. اقول اجثـوا على ركبكم. (الجميع يجثون على ركبهم ماعدا نادا)

القاضي كازادو : لتكن لك خشية من السماء يانادا واجث على ركبتيك.

نادا : الجثو لا أسـتطيبه لأن ساقي متخشـبة. أما عن الخشية التي تريدها أن تتلبسني فلم تعد دعوة إليها تفاجئني، فأنا أصبحت على علم بكل الذي ينبغي لي أن أخشاه، وأسوأ ما أخشاه هو مواعظك الأخلاقية.

القاضي كازادو : ألا تعتقد إذن في شيء أيها التعس ؟

نادا : لا أعتقد في شيء في هذا العالم، اللهم إلا النبيذ ...

القاضي كازادو : اغفـر له ياإلهي مادام لا يعي ما يقول، واحفظ هذه المدينة مدينة أبنائك.

نادا : انصرفـوا، فقد انتهى القـداس. إليَّ بزجاجـة يا دييجو احتفاء بالمذنب ثم قص عليَّ مغامراتك الغرامية.

دييجو سـوف أتزوج من ابنة القاضي يانادا. وأود لو أنك من الآن فصاعـدا كففت عن توجيه الإهانـات لأبيها. إن في ذلك إهانة لي أنا أيضا.

(أصوات طبول تقرع ويدخل مناد يحيط به الحراس)

المنادي : أمر من الحكومة: على كل فرد أن ينسحب ويستأنف مزاولة أعمالـه. إن الحكومـات الصالحة هي الحكومـات التي لا



يحدث فيها شيء. تلك هي إرادة الحاكم ألا يحدث شيء في حكومته حتى يظل حاكما صالحا كما كان دائما. وعلى ذلك فنحـن نؤكد لأهالي مدينة قادش أن شـيئا لم يحدث اليوم يستحق أن يفزعوا ويقلقوا. ولذلك يجب على كل فرد، ابتداء من هذه السـاعة السادسـة أن يعتبر رأى مذنب في سماء المدينـة أمرا لا صحة لـه. وكل من يخالف هذا القرار، وكل سـاكن من سـكان المدينة ينبغي له أن يتحدث عن المذنبات بطريقـة تختلف عن كونها ظواهر فلكية، فهذا شـأنها في الماضي وفي المستقبل، فسوف يعاقب بلا رحمة.

(دقات طبول وانسحاب المنادى)

نادا : حسن ياديجو، ماذا أنت فاعل ؟ إنها ضالة عثروا عليها.

دييجو : إنها حماقة. والكذب دائما حماقة.

نادا : كلا إنها سياسة، وسياسة أؤيدها مادامت تهدف إلى إلغاء كل شيء. يا له من حاكم طيب هذا الذي يحكمنا هنا. فإذا أصاب ميزانيتـه العجز، وإذا دخلت الخيانـة الزوجية إلى بيته، فما عليه إلا أن يحذف العجز وينكر الخيانة الزوجية. أيها الزوج المخدوع، إن زوجتك مخلصة، أيها المشلولون، إن في مقدوركم المشي، أيها العميان، أبصروا، تلك هي ساعة الحق.

دييجو : أنت تنعق كالبومة، فكف عن إنذارنا بالمصائب، فإن سـاعة الحق التي تعنيها إنما هي ساعة القضاء بالموت.

نادا : صدقت، فلتمت الدنيا بأكملها. آه لو اسـتطعت أن أجعلها تمثـل أمامي قطعة واحدة كأنها ثور ترتجف قوائمه وتتقد عيناه الدقيقتان بالمقت والضغينة، ويتبلل خشمه بلعاب عكر رخو مثل كساء متسـخ من الدنتيلا، إذن يا لها من لحظة، فإن يدي، هذه التي أوهنها الكبر لن تتردد، ستخز منه حبل الوتين بطعنة واحـدة فتهوي الدابة المصعوقة، وتظل تهوي إلى الأبد عبر أجواء تتوالى بلا نهاية.

دييجو	:	أفــلا تبقــي على شــيء لا تحتقــره يانــادا ؟ اقتصد في احتقارك، فلسوف تحتاج إليه ليسندك.
نادا		إني لست في حاجة إلى شيء. ولديَّ من الحقد ما لاينفد، إلى أن ينفد عمري، فما من شيء في هذه الأرض، ملكا متوجا أم نجما مذنبا أم شريعة أخلاقية، أراه أبدا أسمى مني.
دييجو	:	اهدأ ولا تفرط في التعالي، وإلا تناقص حب الناس لك.
نادا	:	إنني فوق كل شيء مادمت لم أعد محتاجا إلى شيء.
دييجو	:	لا أحد يتعالى على الشرف.
نادا		وما هو الشرف يابني؟
دييجو	:	إنه ما يجعلني أقف على قدمي.
نادا	:	إن الشــرف ظاهرة فلكية فــي الماضي أو في المســتقبل، فلتحذفها.
دييجو	:	أتركك بخيــر يانادا، ينبغي لي أن أنصرف، فهي تنتظرني، وانتظارها لي هو الذي يجعلني لا أؤمن بالكارثة التي تعلنها أنت، لابد لي أن أتوفر على بناء ســعادتي وهذا عمل طويل يتطلب أن يسود السلام كل المدن والقرى.
نادا	:	لقــد قلت لك ذلك من قبل يابنــي. إننا قد وقعنا فعلا في الكارثة، فلا تأمل شــيئا، والملهاة يوشك أن يرتفع ستارها ويكاد الوقت لايســعفني لكي أمضي إلي الســوق وأشرب نخب هلاك الخلق جميعا.

(تنطفئ الأضواء كلها)

(نهاية التقديم)

(تعود الإضاءة. هرج ومرج عام. الإشارات أشد اندفاعا والحشد أسرع تنقلا، موسيقى، أصحاب المتاجر يسدلون بالجذب خصاصها، ويزيحون معارضهم المرصوصة في مقدمة المسرح فينكشف ميدان السوق. فريق المنشدين في جموع الشعب، يتقدمه نفر من صائدي الأسماك يملأون الميدان شيئا فشيئا، وهم في نشوة كبيرة)

الجوقة

إن شيئا لا يحدث، ولن يحدث شيء... إلى الهواء الطلق. إنها ليست كارثة بل وفرة من بركات الصيف وخيراته. إن الربيع ها هو ذا لم يكد يستوفي أيامه، وإذا بثمار البرتقال الذهبي، برتقال الصيف، ترشق بها الأرض، مقذوفة إليها على عجل عبر السماء فتعتلي قمة الموسم وتشقق من النضج بطونها فوق إسبانيا فيسيل منها الشهد، وإذا بجميع الفواكه التي جاد بها كل صيف في أرجاء الأرض، من عنب عسلي القشرة وشمام في لون الزيد وتين يزخر بالدم ومشمش يسطع باللهب يتوالى في ذات الوقت ورودا، وتتدحرج إلى معارض أسواقنا. إيه أيتها الفاكهة. إنها هنا تختم رحلتها الطويلة السريعة التي أتت بها من الريف، حيث كانت قد بدأت تثقل بالماء والسكر فوق حقول زرق من فرط دفئها، ووسط آلاف من العيون المشمسة يتجمع تدفقها شيئا فشيئا في تيار واحد من ماء الشباب تشربه الجذور والسيقان، فيصعد به إلى قلب الثمار ثم ينتهي بأن يسيل على مهل كأنه نضح لاينضب من نافورة من عسل، فتسمن عليه الثمار وتزيد من ثقلها درجة بعد درجة، الثمار تثقل ثم تثقل حتى يبلغ من ثقلها أنها تغطس في غمر من ماء السماء، وتتدحرج فوق العشب المكثف، وتركب الأنهار، وتعبر كل الطرق فيزفها من جميع أركان الأفق هتاف الفرح من الشعب وصدح الأنغام من الأبواق.

(عزف قصير من أبواق)

تأتى في زحام إلى مدن البشر شاهدة على أن الأرض طيبة، وأن السماء أم الضرع لا تخلف للرخاء موعدا للقاء. (صيحة فرح عالية) كلا، إن شيئا لا يحدث، ها هو الصيف. إنه رسول يحمل العطايا لا الكوارث، أما الشتاء فحسابه مؤجل والخبر اليابس له يومه لما تشرق شمسه، أما اليوم فخيرات وبركات: سمك المرجان والسردين والروبيان أسماك طازجة قادمة من بحار هادئة، ثم الجبن المخلوط بالأعشاب المعطرة ولبن المعز ذو الرغوة كأنها رغوة صابون تدعكه يد غسالة، وعلى صحاف من الرخام شرائح من اللحم تتقبض ناصيتها لفائف من الورق الأبيض، لحم تُشم منه رائحة الكلأ ويتيح للإنسان أن يجتر الدم وعصارة الحياة والشمس معا في آن واحد.

إلى الكأس، إلى الكأس. لنشرب كأس المواسم، لنشرب حتى النسيان فلن يحدث شيء.

(صيحات فرح وصدح أبواق موسيقى. وتدور

مشاهد صغيرة هنا وهناك في السوق)

المتسول الأول : أعطني صدقة يارجل، أعطيني صدقة ياجدتي.

المتسول الثاني : بادروا بالإحسان قبل فوات الأوان.

المتسول الثالث : إنكم تفهمون مقصدنا.

المتسول الأول : لم يحدث شيء، وهذا أمر مفروغ منه.

المتسول الثاني : ولكن ربما يحدث شيء.

(ينشل ساعة أحد المارة)

المتسول الثالث : ضاعفوا صدقاتكم دائما، فضمان ثوابين خير من ضمان ثواب واحد.

(في سوق السمك)

الصياد : سمكة مرجان طازجة وكأنها زهرة من زهور القرنفل، زهرة البحار وأنتم لا شيء يعجبكم.

العجوز : إن سمكتك هي كلب من كلاب البحر.

الصياد : كلب بحر ؟ لم يدخل كلب بحر هذا الحانوت، إلا حين أتيت أنت.

العجوز : إيه يابن أمك. انظر إلى شعري الأبيض.

الصياد : انكشح أيها المذنب العجوز.

(يقف الجميع بلا حراك. كل منهم وضع سبابته فوق شفتيه)

دييجو : طال عليّ البعاد.



فيكتوريا: أيها المجنون، لقد افترقنا في الســاعة الحادية عشرة هذا الصباح.

دييجو: نعم، ولكن أباك كان موجودا .

فيكتوريا: إن أبي قال نعم، وكنا على يقين من أنه سيقول لا .

دييجو: لقد أصبتِ في التوجه إليه رأسا ومواجهته.

فيكتوريا: لقد كنت مصيبا، وأثناء اســتغراق أبي في التفكير كنت أنا مغلقة العينين، استمع في أعماق نفسي إلى خطوات تجري من بعد وتقترب وتزداد سرعة، حتى جعلت أوصالي جميعا ترتعد . ثم تــرتج باللهفة ثم أخلدت إلــى الهدوء. إنها في انتظارنا نحن.

دييجو: أما أنا فلم أكن بالأصم ولا الأعمى، ولكني كنت لا أسمع إلا صهيل قلبي الطروب، فقــد نلت فرحتي فجأة فلم يُمتحن صبــري. إيه يامدينة النور، ها هم قد أســلموك إليَّ مدى الحياة حتى الساعة التي تدعونا فيها الأرض إلى أحضانها، في الغد سوف نرحل معا، ونمتطي صهوة جواد واحد .

فيكتوريا: نعــم تكلم بلغتنا حتى لو بدا ذلك جنونا في حكم الآخرين. وفي الغد ســوف تلثم فمي، وأنظــر أنا إلى فمك، ويتأجج خدي نارا . قل لي، أهذه هي ريح الجنوب ؟

دييجو: إنها ريح الجنــوب وهي تلهبني كذلك بســياطها . أين هي النافورة التي تسقيني منها ؟

(يقتــرب ويدخــل ذراعيه من بــين العــوارض وتضم هي كتفيه)

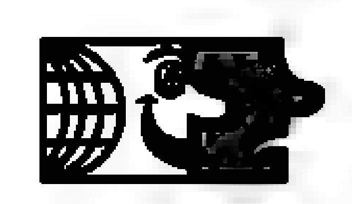
فيكتوريا: آه. كم يضنيني انتقاد حبي لك. اقترب أكثر.

دييجو: كم أنت جميلة !

فيكتوريا: كم أنت قوي!



دييجو	بماذا تغسلين وجهك هذا حتى يصبح في بياض اللوز.
فيكتوريا	إني أغسله بماء صاف ويضفي عليه الحب رونقه.
دييجو	وشعرك في مثل طراوة الليل.
فيكتوريا	هذا لأني كل ليلة انتظرك في نافذتي.
دييجو	هل الماء الصافي والليل هما اللذان يضفيان عليك رائحة شجرة الليمون؟
فيكتوريا	كلا، إنها ريح حبك التي تأتى لها في يوم واحد أن تدثرني بالزهور من الرأس إلى القدم.
دييجو	وسوف تسقط الزهور.
فيكتوريا	ولكن الثمار في انتظارك.
دييجو	وسوف يأتي الشتاء.
فيكتوريا	ولكن بصحبتك. أتذكر ما غنيت لي أول مرة ؟
	ألم يزل ذلك صحيحا ؟
دييجو	بعد موتي بمائة عام
	سوف تسألني الأرض: ألم يحن بعد نسيانك لها؟
	فأجيب: كلا لم يحن بعد، لم يحن بعد .
	(فيكتوريا تلزم الصمت)
دييجو	ألا تقولين شيئا؟
فيكتوريا	ألجمت السعادة لساني.
	(تحت خيمة العراف)
العراف لامرأة	إن الشمس ياجميلتي اجتازت برج الميزان لحظة ولادتك، مما يتيح اعتبارك من مواليد برج العذراء مادام برجك الطالع هو الثور الذي يعلم الجميع أنه خاضع للعذراء. إن طبيعتك إذن عاطفية حنون ومرحة، ولك أن تطيبي نفسا بذلك على رغم أن برج الثور يؤهل للعزوبة، وقد يترك هذه



الصفــات القيمة معطلة. وعلــى كلٍّ فأنا أرى اندماجا بين العــذراء وزحل، وهو اندماج ضار بالزواج والإنجاب. وهذا الإندماج ينبئ كذلك بضروب عجيبة من الاشــتهاء يخشى معها من أوجاع تصيب البطن. ومع ذلك فلا تتواني واسعي إلى الشــمس التي تزيد من عافية الذهن وجلاء الضمير، وهي المســيطرة على عصارات البطن واختاري أصدقاءك أيتهــا الصغيرة من بــين مواليد برج الثور، ولا تنســي أن موقفك يتجه اتجاها سليما مواتيا يحقق لك المرح. الأجرة ستة فرنكات.

(يقبض النقود)

المرأة: شكرا. أنت واثق مما قلت لي أليس كذلك ؟

العراف: دائما أيتهــا الصغيرة، دائما. ومع ذلك ينبغي ألا يغيب عن حســابنا أنه لم يحدث شيء هذا الصباح، هذا هو المفهوم وإن الذي لا يحدث قد يفســد طوالعي، أنا لســت مسؤولا عما لم يحدث.

(المرأة تنصرف)

العراف: اطلبوا طالعكم. الماضي، الحاضر والمســتقبل الذي تضمنه الكواكب الثابتة. أقول الثابتة (ثم يحدث نفسه) وإذا تدخلت فيه المذنبات صارت هذه المهنة مســتحيلة. يجب أن يصبح المرء حاكما.

(بعض البوهيميين معا : صديــق يريد لك الخير، ســمراء معطرة كزهر البرتقال، سفر طويل إلى مدريد، ثروة موروثة عن أمريكان)

واحد منهم فقط: بعد وفاة الصديق الأشــقر ســوف تتلقى خطابا أسمـر. (في غيابة المســرح منصة ترفعها حوامل خشــبية كالتي يستعين بها المسرح المتنقل، فوقها رجل يستجلب إليه انتباه الجمهور بدقات من طبلة عسكرية).

الممثلون افتحن أعينكن الجميلة أيتها السيدات الرشيقات. وأنتم أيها السادة أعيرونا آذانكم. إن الممثلين الذين ترونهم هنا هم من بين أرباب مهنتهم، أعلاهم قدرا وأوسعهم شهرة في مملكة إسبانيا. وقد أقنعتهم بعد مشقة بترك البلاط والحضور إلى هذه السوق، سيمثلون لكم لإمتاعكم فصلا مبجلا من مسرحية الأرواح للكاتب الخالد بدرو دي لا ريبا، وهي مسرحية ستدهشكم، رفعتها أجنحة العبقرية دفعة واحدة إلى علياء الروائع العالمية صاغتها بمقدرة جبارة، وبلغ من عشق ملكنا لها أنه أمر بأن تمثل أمامه مرتين يوميا، وكان سيسعده أن يواظب على مشاهدتها لو لم أبصر هذه الفرقة المنقطعة النظير بأن المصلحة والضرورة الطارئة تقضيان بعرضها للتعريف بها في هذه السوق أيضا سُموا بمدارك أهل قادش، وهم أفضل أبناء إسبانيا حنكة وفطنة! اقتربوا إذن فسوف يبدأ العرض.

(يبدأ العرض فعلا، ولكن أحدا لا يسمع الممثلين، لأن أصواتهم تغطيها ضوضاء السوق)

- إلى الهواء الطلق إلى الهواء الطلق.
- ادخلوا لتروا حورية نصفها امرأة ونصفها سمكة.
- السردين المقلي، السردين المقلي.
- هذا أستاذ الهرب، فر من جميع السجون.
- اشتري طماطمى أيتها الجميلة، إنها ناعمة مثل قلبك.
- دنتلا وملابس الزفاف.
- بلا ألم ولا خداع ألعبان، إنه بدرو الذي يخلع الإنسان.

نادا (يخرج من الحان وهو سكران)

اسحقوا كل شيء، هذه الطماطم وأشباهها من القلوب فلنهرسها، وأستاذ الهرب نزج به في السجن، وأسنان بدرو نخلعها، والعراف الذي لم ينبئنا بكل هذا الذي سنفعله

نسوقه إلى المشنقة. وحورية البحر سمكة فلنأكلها. وكل ما تبقى نطرحه إلا الخمر.

(يدخل تاجر أجنبي يرتدي ثيابا فاخرة إلى السوق وسط تسابق عدد كبير من الفتيات)

التاجر: اطلبوا، اطلبوا الشريط الحريري، شريط المذنب.

الجميع: صه صه.

(يذهب إليه الناس ويبينون له همسا في أذنه أن ذكره للمذنب في ندائه حماقة لا تسلم عقباها)

التاجر: اطلبوا، اطلبوا شريط النجمة الأصلي.

(الجميع يشترون من الشريط، صيحات فرح، موسيقى، ويصل الحاكم وحاشيته إلى السوق ويقف كل في مكانه).

الحاكم: إن حاكمكم يحييكم، ويسره أن يراكم متجمعين في الأسواق كالعادة بمعاملات تجلب الثراء والأمن على قادش. يقينا لم يطرأ طارئ تتغير به قادش، وهذا حسن لأن التغيير يقلقني، وأنا أحب عاداتي الوطيدة.

رجل من الشعب: نعم أيها الحاكم، إن شيئا، لم يتغير حقيقة، وهذا ما نستطيع أن نؤكده لك نحن الفقراء. فأواخر الشهور مضبوطة، والبصل والزيتون والخبز هي ما نقيم به أودنا، أما الدجاج المحمر فنحن سعداء إذ نعلم أن غيرنا يأكله يوم الأحد دواما، وهذا الصباح طن نبأ مثير في المدينة وفوق المدينة. والحقيقة لقد اعترانا الخوف، لقد خشينا أن يتغير شيء وأن يضطر البؤساء فجأة إلى الاقتصار في طعامهم على الشكولاته. ولكن بفضل جهودك أيها الحاكم الصالح تم إعلاننا بأن شيئا لم يحدث وأن آذاننا قد أخطأت السمع. وعلى ذلك فها نحن معك مطمئنين.

الحاكم: إن الحاكم سعيد بذلك، فليس في الجديد أي خير.

قضاة البلدية: لقد أحسن الحاكم الكلام، فليس في الجديد أي خير،



ونحن قضاة البلدية سفراء الحكمة وتجارب السنين، نحب أن نتأكد على الأخص من أن فقراءنا الطيبين لم يرسموا على ملامحهم ظلا من السخرية، فالسخرية فضيلة هدامة، والحاكم الصالح يفضل عليها الرذائل البناءة.

الحاكم : حسب يومنا أن آمر بألا يتبدل أي شيء، فإني ملك الثبات.

سكارى الحان : نعم نعم نعم، لا لا لا. فلينقطع تبدل أي شيء.

(حول نادا) أيها الحاكم الصالح فكل شيء يدور حولنا، وفي هذا عذاب كبير. نحن نريد الاستقرار، فلتتوقف كل حركة، ولنطرح كل شيء سوى النبيذ والجنون.

الجوقة لم يتغير أي شيء، إن شيئا لا يحدث ولم يحدث أي شيء؟ فالفصول تدور حول محورها، وفي السماء اللطيفة تدور الكواكب الحكيمة التي تدين هندستها الهادئة هذه النجوم المخبولة التي تشذ عن القاعدة مراعى السماء بجدائل شعرها الملتهب، وتعكر بصباحها المنذر موسيقى الكواكب العذبة، وتشيع الاضطراب في الجاذبيات الثابتة أبدا، وتتفثها لتيار عنيف من الريح في انطلاقها المسعور. تشيع الاضطراب في هذا النسق الأزلي لتجاذب الأجرام فتتأزم دوراتها حول محورها ويكون له صرير، ثم تمهد في كل مفارق الطرق في السماء لوقوع مصادمات مروعة بين الأفلاك، حقا إن كل شيء قد انسلك في نظامه والعالم يتوازن والموسم في عزه واستقراره، يا للسعادة ! يا للسعادة! ها هو الصيف. ماذا يهم ما تبقى، فالسعادة هي ما نفخر به.

قضاة البلدية : إذا كان للسماء عادات فاشكروا عليها الحاكم مادام هو ملك العادات. إنه أيضا لا يحب الشعور المشعثة وكل من في مملكته حسن التمشيط.

الجوقة : نحن حكماء وسنظل حكماء مادام كل شيء لن يتغير أبدا. وماذا نفعل ولنا شعور مشعثة وعيون متقدة وأصوات حادة،

إن يكن لنا من قادم فخر فبسعادة غيرنا من الناس.

السكارى حول نادا : اطرحوا الحركة، اطرحوا كل شيء، ولنمتنع عن التبدل لنمتنع عن التبدل، ولندع الساعات تُولّ، فنظام الحكم القائم سيمضي بلا تاريخ، وهذا الموسم المستقر هو أحب المواسم لقلوبنا لأنه أشد حرا، فهو يحثنا على الشراب.

(ولكن نغمة الإنذار المحورية في اللحن الموسيقي، بعد أن كانت تنبعث لفترة في طنين مخنوق، إذا بها ترتفع فجأة وتبلغ درجة الحدة على حين تدوي دقتان مكتومتان، وفوق المنصة الخشبية في غيابة المسرح يتقدم أحد الممثلين إلى الجمهور، وهو ماض في أداء دوره بالإشارة لا باللفظ (البانتوميم) فإذا به يترنح ويسقط بين الجمع المحتشد الذي يسرع إلى التحلق حوله، لا ينطق فمه بكلمة ولا يعبر عن معنى بإشارة وساد صمت مطبق.

لحظات من الجمود، ثم يعم التدافع والتفرق. دييجو يشق الجموع فتتراجع عنه ببطء حتى يتكشف له الرجل الصريع)

(ويقبل طبيبان يفحصان الجثة ثم يبتعدان عنها، ويدور بينهما نقاش ينم عن اضطراب شديد. ويتقدم شاب إلى أحد الطبيبين يستفسره عما حدث فيجيبه بإشارات تنكر أن شيئا قد حدث، فيزداد الشاب بتشجيع من الجمهور إلحاحا وتضييقا عليه. يلتصق به ويمسكه من تلابيبه في حركة من يتوسل إليه ويستحلفه حتى تعلقت شفتاه بشفتي الطبيب فـإذا بصرخة تند منه وتومئ ملامحه بأنه التقط كلمة من فم الطبيب فيتراجع، وكأن الكلمة التي التقطها أكبر من فمه ولابد له من بذل جهد كبير لكي يتخلص منها، فهو لاينجح إلا بعد مشقة عظيمة في أن يلفظها من بين شفتيه)

(الطاعون. الجميع يجثون على الأرض، ويردد كل واحد منهم هذه الكلمة بصوت تتصاعد قوته، وبتكرار تتزايد سرعته. وإذا بهم يفرون وتتألف منهم حلقات واسعة تدور



على المســرح حول الحاكم الذي عاد إلــى اعتلاء منصته. ويشتد حركة الجمع سرعة وتدفقا وهلعا، إلى أن يعلو صوت القسيس الشيخ، حينئذ يجمد الجميع في زمر متفرقة)

القسيس : هــا هو ذا العقاب قد وافانا والوبــاء القديم قد حط على المدينــة. إنه هو الذي ألفت الســماء دائما أن ترســله إلى المدن الفاســدة لتميتها عقابا لها علــى خطاياها المميتة، صرخاتكم ستســحق في أفواهكــم الكاذبة، وخاتم من نار سيكوي قلوبكم، فلتصلوا الآن لإله العدل لكي يغفر. ادخلوا إلى الكنيسة، ادخلوا إلى الكنيسة.

(يندفع نفر من الناس إلى الكنيســة، وتتوزع بقيتهم جانب اليمــين وجانب اليســار في حركة آلية، على حين يســمع لجرس الكنيســة دقات صلاة الجنازة. وفي الجانب الثالث المتبقي من المسرح يقف العراف ويتكلم بلهجة محايدة تمام الحياد كأنه يقدم تقريرا إلى الحاكم)

العراف : إن نســقا حديثا لمواقع النجوم المعادية قد ارتسم فورا على نظام الفلك. إنه يدل وينبئ أن القحط والمجاعة والطاعون ستعم أرضنا أيا كانت الأحوال.

(ولكــن ثرثــرة جماعــة مــن النســاء تعلــو وتحجب كل الأصوات)

- كان في حلقه حيوان ضخم ينضح دمه بكركرة عالية كأنها صوت مضخة.

- كان عنكبوتا، عنكبوتا كبيرا أسود.

- أخضر اللون، كان أخضر اللون.

- بل كان سحلية من سحالي الأعشاب المائية.

- أنت لم تر شيئا، بل كان أخطبوطا في حجم طفل.

- ديجو، أين دييجو ؟
- ســوف يبلغ من كثــرة الموتى أن يعجز الأحيــاء عن دفنهم جميعا.
- وي ! لو استطعت الرحيل.
- الرحيل الرحيل.

فيكتوريا : دييجو أين دييجو ؟

(خلال هذا المشــهد كله امتلأت السماء بالعلامات وازداد طنين نغمة الإنــذار وضوحا وتوضيحا للذعر العام. يخرج رجــل ذو وجه مضــيء من أحد المنازل وهــو يصيح: نهاية العالــم في ظــرف أربعين يوما. ومن جديــد يوالي الذعر انتشاره والناس يرددون: «خلال أربعين يوما نهاية العالم». يأتي حــراس ويعتقلون صاحب الوجــه المضيء، ولكن في الناحية الأخرى ساحرة توزع العقاقير)

الساحرة : ترنجان [1]، نعناع، شــلبيه، ندى البحــر[2]، زعتر، زعفران، وقشــر ليمون وعجين اللوز، انتبهوا، انتبهوا، هذه العقاقير لا تخطئ.

(ولكــن ريحا باردة تهب حينما تأخذ الشــمس في المغيب، مما يجعل الناس يرفعون رؤوسهم إلى أعلى)

الساحرة : الريــح، هذه هــي الريح. إن الوباء لا يطيق الريح. ســوف يتحسن كل شيء، وسترون صدق ما أقول.

(في اللحظة ذاتها تهــدأ الريح، ويرتفع طنين نغمة الإنذار إلى ذروة الحدة، وتســمع الدقتان المكتومتان الثانية أسرع ملاحقة للأولى هذه المرة. يهوي رجلان إلى الأرض وســط

---

(١) نبات الليمون.

(٢) نباتات عطرية ذات رائحة زكية ومزيلة للمغص.



الحشد، فيجثو الجمع على الركب ويأخذون في الابتعاد عن جسدي الرجلين ويتراجعون القهقرى، ولايبقى معهما إلا الساحرة، وهما مطروحان تحت قدميها، وقد بدت لكل منهما علامة على ثنية الفخذ والرقبة. يتلوى المريضان وتصدر منهما حركات قليلة، ثم يلفظان أنفاسهما، على حين يهبط الليل ببطء على الجميع وهو ماض في انصرافه تاركا الجثتين وسط المشهد.

ضوء في الكنيسة والقصر غارق في النور. ضوء في بيت القاضي. ينتقل المشهد بالتبادل بينهما)

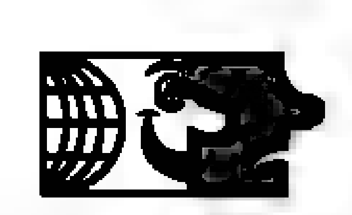
قاضي البلدية الأول : إن الوباء ياصاحب الفخامة، ينتشر بسرعة تفوق جميع تدابير الإغاثة، وقد عمت العدوى جميع أقسام المدينة على نحو فاق ظننا، مما يدفعني إلى الاعتقاد بضرورة إخفاء الموقف، وكتم الحقيقة عن الشعب بأي ثمن. وعلى كل في الوقت الراهن يهاجم الوباء ضواحي المدينة وهي فقيرة وغاصة بالسكان، ووسط تعاستنا يعتبر هذا على الأقل أمرا مرضيا.

(همهمات تأييد في الكنيسة)

القسيس اقتربوا ليعترف كل منكم علنا بأسوأ ما اقترف. افتحوا قلوبكم أيها اللعناء، وليجهر كل منكم للآخر بالشر الذي اقترفه والذي كان في نيته اقترافه، وإلا فسيخنقكم سم الخطيئة ويقودكم إلى الجحيم، كما يفعل أخطبوط الطاعون... وأنا من جهتي أتهم نفسي بأنني كثيرا ما قصرت في تقديم الصدقة.

(يتقدم بعد ذلك ثلاثة من الحاضرين للاعتراف واحدا بعد الآخر بين يدي القسيس، ويؤدي الاعتراف بالإشارات وحدها، على حين يتتابع الحوار التالي)

(في القصر)



الحاكم : كل شـــيء ســـوف يســـوء.. الذي يضايقني أنني كنت أريد الذهاب للصيد. إن مثل هذه الأمور تحدث حين يكون لدى المرء أعمال مهمة تنتظره.

قاضي البلدية الأول : لا تتخلف عن الصيد من كل بد، ولو لم يكن ذلك إلا لضرب المثل، فالمدينة ينبغــي أن تعلم كيف عرفت أن تقابل المحنة بوجه تعلوه السكينة والاطمئنان.

الجميع : اغفر لنا يا إلهي ما جنته أيدينا وما لم تجنه قط.

(في بيت القاضي)

(القاضي يرتل الترانيم تحيط به أسرته)

القاضي : إن المولى هو ملاذي وحصني، لأنه هو الذي يحميني من فخ صياد الطيور ومن الطاعون القاتل.

الزوجة : كازادو، ألا يمكننا الخروج؟

القاضي : لقد أســـرفتِ في الخروج طوال حياتك يا امرأة، مما سلبنا السعادة.

الزوجة : إن فيكتوريا لم تعد، وأخشى عليها من الغواية.

القاضي : أنت لم تأخذك قط خشية على نفسك من الغواية فابتذلت الشـــرف.. ابقي هنا فهذا هو البيت الهادئ وســـط البلاء. لقد حسبت حسابا لكل شيء، وسوف ننتظر نهاية الطاعون ونحن متحصنون في البيت، ولن نعاني من شيء بعون الله.

الزوجة : الحق ما تقول يا كازادو، ولكنا لســـنا وحدنا، فثمة آخرون يتعذبون. وربما كانت فيكتوريا في خطر.

القاضي : دعي الآخرين، وشأنهم، وفكري في البيت. فكري في ابنك مثـــلا، وتزودي بجميـــع المؤن قدر طاقتـــك، وادفعي الثمن المطلـــوب، ولكن ضعيها في المخزن يا امـــرأة، في المخزن. لقد حان وقت التخزين (يقرأ) المولى هو ملاذي وحصني.

(في الكنيسة يستأنفون الترانيم)



الجوقة : ولن يكون عليك أن تخاف،
لا من رعب الليل،
ولا من السهام التي تطلق بالنهار،
ولا من الطاعون الذي يسير في الظلام،
ولا من الوباء الذي يزحف في عزّ النهار.

صوت : ربنا ياله من رب عظيم جبار.

(ضوء على الميدان والشعب يتجول على أنغام الكوبلا)

الجوقة : سجلت اسمك على الرمال،
وكتبت على ماء البحر،
فلم نفر إلا بالعناء،

(تدخل فيكتوريا. كشاف يوجه إلى الميدان)

فيكتوريا : دبيجو، أين دبيجو ؟

امرأة : إنه يلازم المرضى، إنه يعنى بالمرضى الذين يدعونه.

(تجري إلى طرف المسرح وتصطدم بدبيجو الذي يلبس قناع أطباء الطاعون. تتراجع وقد ندت منها صرخة فزع)

دبيجو : (بلطف) هل أخيفك إلى هذا الحد يافيكتوريا؟

فيكتوريا : (في صرخة) آه يا دبيجو، أخيرا وجدتك. ارفع هذا القناع وضمني إليك. ضمني إلى صدرك إلى صدرك، وهكذا أنجو من هذا الوباء. (دبيجو لايتحرك)

فيكتوريا : ما الذي تغير بيننا يادبيجو ؟ لقد مضت ساعات وأنا أبحث عنك وأجري هنا وهناك خلال المدينة، وقد روعني احتمال أن الوباء قد يصيبك أنت أيضا. وها أنت بهذا القناع، قناع العذاب والمرض ارفعه عنك، ارفعه عنك، أتوسل إليك وضمني إليك. (يرفع القناع) حين أرى يديك يعاودني عطش إلى لمستهما فيجف فمي. قبلني. (لايتحرك)



فيكتوريا	:	(وقد خفضـت صوتها) قبلني. إني أموت من العطش. هل نسـيت أننا قد تمت خطبتنا بالأمس فقط ؟ لقد انتظرت طوال الليل مطلع هذا اليـوم الذي تقبلني فيه بكل قواك. أسرع أسرع...
دييجو	:	لقد تملكني الإشفاق على المنكوبين يافيكتوريا.
فيكتوريا	:	وأنا كذلك. ولكن أول إشـفاقي علينـا نحن الاثنين، ولهذا بحثت عنك، وكنت أصيح في الشـوارع، وأعدو نحوك وقد مددت ذراعيَّ لأشبكهما بذراعيك.
		(تتقدم نحوه)
دييجو	:	لا تلمسيني، ابتعدي.
فيكتوريا	:	لماذا ؟
دييجو	:	إني لم أعد أعرف نفسي. لم أنكص قط عن منازلة إنسان رهبـة منه، ولكن هذا الذي حدث لا قبل لي بمدافعته، ولو يسـلم لي الشـرف، فلا نفع له عندي الآن. وأشعر بأنني فقدت إرادتي واستسلمت. (تتقدم نحوه) لا تلمسيني فربما أصبـح المرض كامنا فيّ فأنقله إليك من غشـيان الذهول عليَّ، ولسـت أدري حتى كيف السـبيل إلى التقاط هؤلاء الناس وإضجاعهم في فراشـهم، كيف ويداي ترتجفان من شدة البشاعة وعيناي تغيمان من فرط الشفقة، (صيحات وتأوهات) ومع ذلك فهم يدعونني، كما تسـمعين. يجب أن أذهـب إليهم. ولكن اهتمي بنفسـك، بـل اهتمي بنا نحن الاثنين فمن المؤكد أن لهذا الأمر نهايته.
فيكتوريا	:	لاتتركني.
دييجو	:	سـوف ينتهي ذلك الأمر. إنني في ريعان الشباب، وأحبك حبا لا حد له، وكم أستبشع الموت.
فيكتوريا	:	(تندفع نحوه)



أما أنا فإني حية أرزق.

ديجو (يتراجع) يا للخجل يافيكتوريا، يا للخجل !

فيكتوريا الخجل، لماذا الخجل؟

ديجو يبدو لي أنني خائف !

(تسمع تأوهات يجري ديجو نحوها. الجميع يسير على نغمة الكوبلا)

الجوقة من المخطئ ومن المصيب ؟

فكر.

إن كل شيء في هذا العالم كذب.

ليس ثمة حق سوى الموت.

(كشاف يوجه إلى الكنيسة وقصر الحاكم، ترنيمات وصلوات في الكنيسة وفي القصر. القاضي الأول يوجه كلامه للشعب)

القاضي الأول أمر من الحاكم: ابتداء من هذا اليوم، وعلى سبيل التكفير عن هذه المحنة العامة، ولتجنب التعرض لخطر العدوى فإن كل تجمع عام محظور، وكل الملاهي ممنوعة وكذلك...

(امرأة تبدأ في العويل وسط الجموع)

هناك. هناك. يخفون أحد الموتى، لا ينبغي تركه، ستعم منه العفونة، عار على الناس، يجب مواراته التراب.

(هرج ومرج، يأتي رجلان ويجران المرأة)

القاضي وهكذا فإن الحاكم في وسعه أن يطمئن الأهالي على سير الوباء الذي حط على المدينة بلا توقع، إذ يكفي أن تهب الريح من البحر حتى ينقشع الطاعون بعون الله.



(كلامه تقطعه الدقتان الهائلتان المكتومتان، في إثرهما دقتان أخريان، بينما يشتد قرع جرس الجنازات سرعة ورنينا وتتعاقب الصلوات في الكنيسة، ثم يسيطر على الجموع، بلا منافس، صمت مرتعب يدخل في أثنائه شخصان غريبان، رجل وامرأة فيلاحقهما الجميع بنظراتهم. الرجل ممتلئ الجسم عاري الرأس ويرتدي ثوبا من قبيل الأزياء الرسمية، وقد رشق صدره بوسام، وترتدي المرأة كذلك زيا رسميا، له ياقة وكمَّان في لون أبيض، في يدها دفتر صغير يتقدمان ويقفان تحت قصر الحاكم ويحييان)

الحاكم : ماذا تريدان مني أيها الغريبان ؟

الرجل : (بلهجة مهذبة رسمية) مكانك.

الجميع : ماذا ؟ ماذا يقول ؟

الحاكم : لقد أسأت اختيار هذا الوقت لطلبك، وهذه الوقاحة قد تكلفك غاليا، ولكن لعلنا أسأنا الفهم، من أنت؟

الرجل : إن لي ألف اسم.

القاضي الأول : أنا لا أعرف من أنت أيها الغريب، ولكن أعرف أين ينتهي بك المطاف.

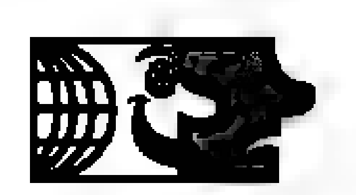
الرجل : (بهدوء شديد) إنك تثيرني. ما رأيك أيتها الصديقة العزيزة.

أينبغي إذن أن أقول لهم من أنا ؟

السكرتيرة : جرت العادة ألا نفعل ذلك إلا بعد مزيد من التحشم والتلطف.

الرجل : ولكن هؤلاء السادة لا يتراخى لهم إلحاح.

السكرتيرة : ربما كانت لهم مبرراتهم. وعلى كل فنحن في زيارة، ولا بد من الخضوع لعادات هذه الأماكن.



الرجل	:	إني أفهمك، ولكن لا يشيع ذلك الاضطراب في هذه العقول الطيبة ؟
السكرتيرة	:	اضطرابهم أفضل من استغفالهم بلا تأدب.
الرجل	:	لك قـــدرة على الإقنـــاع، ولكني مازلت أتحـــرج من بعض المعاذير.
السكرتيرة	:	واحدة من اثنين.
الرجل	:	إني مصغ إليك.
السكرتيرة		تعلن اســـمك أو لا تعلنه. فإذا أعلنته فســـيعرفونه، وإذا لم تعلنه فلن يغيب عنهم علمهم به.
الرجل	:	لقد أوضحت لي الأمر تمام الوضوح.
الحاكم	:	هذا كاف على كل حال، غير أني للمرة الأخيرة أفرض عليك قبل اتخاذ التدابير اللازمة أن تعلن اسمك ومقصدك. (بلهجة مازالت غير متكلفة)
الرجل	:	أنا الطاعون... وأنت؟
الحاكم	:	الطاعون ؟
الرجل	:	نعم. وأنا في حاجة إلى منصبك. صدقني، إني آسف لذلك ولكن أمامي أعمالا كثيرة لا بد لي من إنجازها، ســـأمنحك مهلة ساعتين مثلا، أيكفيك هذا لنقل السلطة إلي؟
الحاكم	:	لقد شـــططت هذه المرة وجاوزت كل الحدود. سوف تعاقب على هذه الوقاحة. أيها الحراس.
الرجل	:	انتظـــر. إني لا أريد أن أحمل إنســـانا على فعل رغم أنفه، ومبدئـــي أن أتجنب كل عيب، وأنت على كل حال لا تعرفني ولكنـــي أود حقـــا أن تتخلـــى لي عن منصبـــك من دون أن تضطرني إلى أن آتيك ببرهان على قدراتي، أفلا تستطيع تصديقي اعتمادا على كلامي وحده ؟



الحاكم : ليـس لدي وقت أضيعــه، وهذه المهزلة قــد طالت كثيرا. اقبضوا على هذا الرجل.

الرجل : لاخيار لي إذن، لا بد من الخضوع لما أكره، وأنا أضيق بهذا الأمر كله ضيقا شديدا. هل لك أيتها الصديقة العزيزة أن تشرعي في الشطب ؟

(يمد ذراعه إلى أحد الحراس. السكرتيرة تتعمد أن يتجلى شــطبها لشــيء مكتوب فــي الدفتر. وقع الدقــة المكتوبة يملأ الأســماع، يســقط الحارس على الأرض، تتقدم إليه السكرتيرة وتفحصه)

السكرتيرة : انتظــم تطبيق القواعد يــا صاحب الفخامــة، فالعلاقات الثلاث ها هي ذي بادية عليه (للجميع بتلطف) معنى علامة واحدة أنها تثير الشك لا اليقين، ومعنى علامتين أن المرض قد أصابكم، ومعنى العلامات الثلاث أن الشــطب قد تقرر وصدر به الحكم. فالأمر كما ترون بسيط غاية البساطة.

الرجل : آه. لقد نسيت أن أقدم لكم سكرتيرتي. وأنتم على كل حال تعرفــون من هـــي، ولكن لا بأس فإن المرء يصادف أناســـا عديدين فلا يذكرهم جميعا.

السكرتيرة : لهم عذرهم ولا ضير، فالناس كلهم لا يغيب عنهم طويلا أن يعرفوا من أنا.

الرجل : إن لها طبعا رضيا كما ترون، فهي مرحة فنوع نظيفة باطنا وظاهرا...

السكرتيرة : ليس لي فضل في ذلك، فالعمل أسهل وسط الزهور النضرة والابتسامات.

الرجل : نعــم اعتقادك هــذا، ولكن لنعد إلــى موضوعنا. (موجها كلامه إلى الحاكم) ألم تر أنني أمددتك ببرهان كاف على أنـــي جــاد في قولي، ما لــك لا تنطق بكلمــة ؟ نعم. قد

أرهبتك بطبيعة الحال، ولكن ثق بأن هذا يحدث على غير هواي، كنت أفضل عقد تسوية ودية وتعاهد نقيمه على الثقة المتبادلة، يكفي لضمان ذلك أن تقول نعم وأقول نعم، واتفاق يرضي الشرف على نحو ما، وعلى كلٍّ لم يفلت بعد من قدرتك اتخاذ قرار سديد. أترى أن مهلة ساعتين كافية لك ؟

(الحاكم يهز رأسه علامة النفي)

الرجل (يستدير نحو السكرتيرة) أليس هذا مما يؤسف له؟

السكرتيرة : (تهز رأسها) إنه رجل عنيد. يا للعوائق.

الرجل : (للحاكم). مازلت مع ذلك متشبثا بنيل رضاك، فلا أريد أن أفعل شيئا من دون موافقتك، وإلا كنت مناقضا لمبادئي، وستمضي سكرتيرتي إذن في الشطب بالقدر الذي يفضي إلى الفوز منك بموافقة عن طيب خاطر على إصلاح حين أتقدم باقتراحه. هل أنت مستعدة أيتها الصديقة العزيزة؟

السكرتيرة : لن أتريث إلا مقدار فراغي من قلمي الذي انكسر سنُّه، ثم سرعان ما تسير الأمور على أحسن حال.

الرجل : (يتنهد) لولا تفاؤلك لأصبحت مهنتي مؤلمة جدا.

السكرتيرة : (تبري قلمها) إن السكرتيرة المثالية على يقين من أن كل خلل لا يستعصي علاجه وتسويته، ما من خطأ في حساب إلا هان إصلاحه، ما من موعد لم يتحقق إلا تيسر تعويضه، ولا مصيبة ليس لها جانب طيب، حتى الحروب ذاتها هي في بعض وجوهها نعمة، بل إن المدافن تصبح مجالا لعقد صفقات مربحة حين يسقط كل عشر سنوات امتياز استيلاء كل أسرة على قبر خاص بها على الدوام.

الرجل : إن كلامك من ذهب.. هل أصبح لقلمك سن؟



السكرتيرة نعم إن له سنا ونستطيع أن نبدأ.

الرجل هيا بنا.

(يشير إلى نادا الذي تقدم، ولكن تنفجر له قهقهة عالية شأن السكارى).

السكرتيرة هل أستطيع أن ألفت نظرك إلى أن هذا من النوع الذي لا يعتقد في شيء. وأن هذا النوع مفيد لنا للغاية ؟

الرجل هذا حق. لنأخذ إذن أحد القضاة.

(يسود الذعر لدى القضاة)

الحاكم قف.

السكرتيرة علامة طيبة ياصاحب الفخامة.

الرجل أي خدمة أؤديها لك أيها الحاكم ؟

(في عجلة)

الحاكم إذا تركت لك مكاني أنا وأهلي والقضاة فهل تسلم حياتنا؟

الرجل بطبيعة الحال، وتلك هي العادة المتبعة.

(يتشاور الحاكم مع القضاة ثم يستدير نحو الشعب)

الحاكم يا شعب قادش، إني لعلى يقين من أنكم أدركتم الآن أن كل شيء قد تغير، ولمصلحتكم نفسها ربما كان من الأوفق أن أغادر هذه المدينة وأتركها للسلطة الجديدة التي تكشف فيها للتو، والاتفاق الذي أبرمته معها سيجنبنا ما هو أسوأ بلا شك. وهكذا فإنكم على يقين من الاحتفاظ خارج جدران المدينة بحكومة قد تصبح لكم يوما ذات جدوى. هل أنا في حاجة إلى أن أقول لكم إنني إذ أحدثكم هذا الحديث لا أخضع للقلق على سلامتي الشخصية ولكن...

الرجل : عفوا لمقاطعتي لك. ولكن يسرني لو أنك أوضحت علنا أنك توافق بمحض إرادتك على هذه الإجراءات المفيدة وأن الأمر يتعلق بطبيعة الحال باتفاق حر.

(الحاكم تتجه نظرته إلى الشعب والسكرتيرة ترفع القلم إلى فمها)

الحاكم : لا جرم أنني أبرم هذا الاتفاق الجديد في حرية تامة. (يتمتم قليلا ويتراجع ويولي الأدبار.. تبدأ موجة الرحيل من المدينة)

الرجل : (للقاضي الأول) من فضلك لا ترحل هكذا بسرعة، فإني في حاجة إلى رجل يتمتع بثقة الشعب وأستطيع به إعلان رغباتي.

(القاضي الأول يتردد)

ستقبل بطبيعة الحال (للسكرتيرة) أيتها الصديقة العزيزة.

القاضي الأول : طبعا طبعا، هذا شرف كبير.

الرجل : رائع. أما والحال كذلك فهيا ياصديقتي العزيزة، أبلغي القاضي بما ينبغي أن يعلمه هؤلاء الناس الطيبون من قراراتنا، لكي يستهلوا حياتهم وفق التنظيم الجديد.

السكرتيرة : أمر ارتآه وأعلنه القاضي الأول ومستشاروه.

القاضي الأول : ولكني لم أصدر أمرا بعد.

السكرتيرة : أعفيناك من تجشم هذا العناء، وإخالك تحمد حسن حظك. إن جهازنا التنفيذي يتحمل عبء تحرير نصوص الأوامر التي يكون لك شرف التوقيع عليها.

القاضي الأول : بلا ريب، ولكن...



السكرتيرة : هـــذا الأمر إذن هو بمنزلـــة لائحة تصـــدر تحقيقا لإرادة عاهلنا المحبوب، وتتضمن أســـس التنظيم وبذل الإسعاف عن مـــروءة لمن تصيبـــه العدوى، وترســـم القواعد وتحدد الأشخاص - مثل الملاحظين والحراس والمتكفلين بالتنفيذ واللحاديـــن ممن يطلب إليهم أداء اليمين إنهم ينجزون بكل دقة ما يصدر إليهم من تعليمات.

القاضي الأول : لم كل هذه الرطانة المبهمة من فضلك ؟

السكرتيرة : لكي يتعود الناس بعض الغموض، فكلما شـــق فهمهم سهل انقيادهـــم، وبعد فهـــذه الأوامر التي ينبغـــي لك أن تنادي بها في المدينة بصوت جهير واحدا بعد آخر، لكي يتيســـر هضمها حتى علـــى المحرومين من ســـرعة الفهم، وهؤلاء هم رســـلنا، وجوههم السمحة تعين على تثبيت كلامهم في الذاكرة.

(يتقدم الرسل)

الشعب : لقد رحل الحاكم، لقد رحل الحاكم.

نادا : هذا حقه أيها الشعب، هذا حقه. إن الدولة هي هو، ويجب صيانة الدولة.

الشعب : الدولة كانت هو، أما الآن فهو لم يعد شيئا، ومادام قد رحل فالطاعون هو الدولة.

نادا : وما الذي يعنيكم من هذا الفرق، فســـواء أكان الطاعون أم الحاكم فالدولة لاتزال هي هي.

(الشعب يتحرك باحثا عن مخارج فيما يبدو)

الرسول الأول : كل منزل مصاب ينبغي أن يميزه رســـم نجمة سوداء وسط بابه، محورها طوله قدم، وتزدان بهذه العبارة «نحن جميعا إخـــوة»، وينبغـــي أن تظل النجمة مرســـومة حتى يعاد فتح



المنزل وإلا تعرض المخالف لعقوبة صارمة طبقا لنص القانون. (ينسحب)

صوت: أي قانون ؟

صوت آخر: القانون الجديد بكل تأكيد.

الجوقة: كان سادتنا يقولون إنهم سيحموننا، ومع ذلك فها نحن قد تُركنا لأنفسنا بلا سند، إن ضبابا قبيحا بدا يتكاثف في أركان المدينة الأربعة ويبدد شيئا فشيئا شذا الفواكه والورد، ويذهب ببهجة الموسم ويخنق مرح الصيف. إيه يا قادش، يامدينة البحر، بالأمس فقط ومن فوق المضيق أتت رياح الصحراء محملة بمزيد من الأبخرة الكثيفة لمرورها على الحدائق الأفريقية، أتت لتصيب فتياتنا بالخدر، ولكن الرياح قد توقفت وهي وحدها التي تستطيع تطهير المدينة. فكان سادتنا يقولون إن شيئا لن يحدث ابدا. فإذا بهذا الرجل الآخر هو الذي على حق، وإن شيئا ما يحدث ونحن واقعون فيه، وعلينا أن نولّي الأدبار ونهرب بلا تأخير قبل أن تغلق الأبواب على المحنة التي حاقت بنا.

الرسول الثاني: إن جميع المواد التموينية الأساسية ستكون من الآن فصاعدا تحت تصرف الأهالي، ويعني ذلك أنها ستوزع بأنصبة متساوية وضئيلة على جميع الذين سوف يثبتون، في إخلاص، انتسابهم إلى المجتمع الجديد.

(يغلق الباب الأول)

الرسول الثالث: جميع الأنوار يجب أن تطفأ في الساعة التاسعة مساء، ولن يسمح لأي فرد بالبقاء في مكان عام، أو التجوال في شوارع المدينة من دون تذكرة مرور صحيحة، لن تستخرج إلا في أحوال نادرة للغاية، ووفق مزاج مصدرها وحده. وكل من يخالف هذه الأحكام سيحل به عقاب صارم طبقا لنص القانون.



(أصوات بنبرة تتعالى حدتها)

– سوف يغلقون الأبواب.

– لقد أغلقت الأبواب.

– كلا إنها لم تغلق جميعها.

الجوقة آه. هيا بنا نركضْ إلى الأبواب التي مازالت مفتوحة. ونحن أبناء البحر، وعلينا أن نصل إلى هناك. هناك إلى البلد الذي لا جدران ولا أبواب له، إلى الشواطئ العذراء، حيث الرمال لها طراوة الشفاه، والنظر يمتد بعيدا حتى يدركه الإعياء. لنركض ونركض حتى نلاقي الرياح. إلى البحر، البحر آخر المكان، البحر الطليق، المياه التي تغسل، والرياح التي تحرر.

اصوات إلى البحر، إلى البحر.

(حركة خروج مندفعة)

الرسول الرابع محظور حظرا شديدا تقديم المساعدة إلى أي شخص مصاب بالمرض، اللهم إلا بإبلاغ السلطات عنه وهي التي تتولاه، وتبليغ أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض واجب بصفة خاصة، ويكافأ المُبلغ بالحصول على نصيب مضاعف من المواد الغذائية يسمى بالنصيب الوطني.

(الباب الثاني يغلق)

الجوقة إلى البحر، إلى البحر، البحر سوف ينقذنا. هيهات أن تضيره الأمراض والحروب، فكم من حكومة شهدها وطواها، لا شيء يصدر عنه سوى حمرة الشفق وخضرة الفسق وخرير أمواجه الأبدي من المساء إلى الصباح طوال ليال مرصعة بحشد من النجوم. إيه، لك أنت وحدة وطلاء وتعميد بالملح. يا للوقوف فردا أمام البحر، تلفني الرياح،



وفي مواجهة الشـــمس أخيرا، هـــذا هو الخلاص من هذه المدن المغلقة كالقبور، ومن وجوه بشـــر أوصدها الرعب من لي بمن ينجيني من الإنســـان وشروره المرعبة، كنت سعيدا في قمة الموســـم، قـــد خلى بيني وبين الثمـــار، إذ الطبيعة معتدلـــة والصيف ودود. أحببـــت العالم كلـــه يضمني أنا وإســـبانيا، ولكن ما لي لم أعد أســـمع خريـــر الأمواج في بحـــري. لقد حل محله زعيق ورعب وشـــتم وســـب ونذالة وجبن، ها هـــم أولاء إخوتي قد أثكلهـــم العرق والهواجس وسينوء كاهلهم وشيكا، من ذا الذي يرد لي مسابح النسيان ومياه الهدوء وسط بحر سائلة دروبه، منطمسة آثار عبوره، فهيا إلى البحر من قبل أن توصد الأبواب.

صوت ابتعد بسرعة. حذار من أن تلمس هذا الذي كان قريبا من الميت.

صوت لقد ظهرت عليه العلامة.

صوت تراجعوا تراجعوا...

(يضربونه. الباب الثالث يغلق)

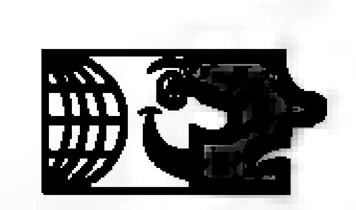
صوت ربنا يا له من رب عظيم جبار.

صوت أســـرع. خذ مـــا نحتاج إليه، الحشـــية وقفـــص العصافير لا تنس. مقـــود الكلب وآنية أوراق النعنـــاع الطازج كذلك، فسوف نمضغها حتى نصل إلى البحر.

صوت أمســـكوا اللص. أمســـكوا اللص. لقد أخذ الغطاء المطرز، غطاء عرسي.

(النـــاس يتمتعون ويمســـكون به ويضربونـــه. الباب الرابع يغلق)

صوت أضف هذا من فضلك، أضف طعامنا.



صوت : لم أتزود بأي شيء للطريق. أعطني رغيفا يا أخي وسأعطيك قيثارتي المحلاة بالصدف.

صوت : إن هذا الرغيف لأبنائي لا لهؤلاء الذين يلقبون أنفسهم بإخوتي. القرابة درجات.

صوت : إليَّ برغيف. إني أعطي ثروتي كلها مقابل رغيف.

(الباب الخامس يغلق)

الجوقة : انصرفوا بسرعة، ليس ثمة إلا باب واحد مازال مفتوحا. إن الوباء يسير أسرع منا، إنه يكره البحر ولا يريد أن نعود إليه. إن الليالي هادئة والنجوم تمرق عبر السمت. ماذا عسى أن يفعل الطاعون هنا. إنه يريد أن يبقينا تحت جناحه، إنه يحبنا وفق أسلوبه ويريد أن نكون سعداء حسب فهمه هو للسعادة، لا حسب فهمنا نحن لها، هي عنده متع تفرض جبرا، وحياة دعتها في بردها وهناء مؤبد بلا غد. إن كل شيء ثابت محدد، ولم نعد نشعر فوق شفاهنا بطراوة الرياح الخوالي.

صوت : أيها القسيس لاتتركني، إني من مساكينك.

(القسيس يهرب)

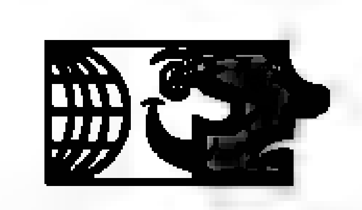
الجوقة : يا للتعاسة ! يا للتعاسة ! بقينا وحدنا نحن والطاعون، لقد انغلق آخر باب ولم نعد نسمع شيئا. البحر من بعد أصبح نائيا، هيهات أن يطال. نحن الآن وسط الآلام، وعلينا أن ندور وندور في هذه المدينة العتيقة التي حيل بينها وبين أشجارها وشطآنها، وأوصدت من حولها أبواب عالية ملساء، وعلاها زعيق جموع متزاحمة صاخبة، ها هي ذي قادش قدأصبحت أخيرا حلبة مصارعة يتقاسمها من الألوان الأسود والأحمر حيث تتم شعائر قتل الضحايا. أيها الإخوة، إن تلك المحنة أكبر من الذنب الذي اقترفناه،

ونحن لا نستحق هذا السجن. إن قلبنا لم يكن طاهرا ولكنا كنا نحب الخليقة وفصول الصيف منها، وكان ذلك خليقا بأن يقسم لنا النجاة. إن الرياح معطلة والسماء خاوية. سوف نلتزم بالصمت مدة طويلة، ولكن للمرة الأخيرة وقبل أن تغلق أفواهنا تحت كمّامات الرعب سوف نطلق صرخة في الصحراء.

(تأوهات وصمت، ولا يتبقى من الأوركسترا إلا صوت أجراسه. أزيز المذنب يعود في هدوء. في قصر الحاكم يظهر من جديد الطاعون والسكرتيرة. السكرتيرة تتقدم وهي تشطب اسما عند كل خطوة وحركاتها تتعاقب وفق دقات من الطبول. نادا يضحك ساخرا، وتمر أول عربة لنقل الموتى ويسمع لعجلاتها صليل. الطاعون ينتصب في قمة الديكور ويأتي بإشارة. كل شيء يتوقف، الحركة والضجيج)

(الطاعون يتكلم)

الطاعون : لا سيادة هنا لأحد غيري، هذا أمر واقع فهو إذن حق، ولكنه حق لا يقبل المناقشة، وعليكم أن تروضوا أنفسكم على التكيف وفقه. على كل حال حذار من أن يخطئ ظنكم، قلت إنني رب السيادة هنا، وقد يكون من الأصح أن أقول إنني رب الفعل والتنفيذ. أما أنتم أيها الإسبان فلكم مزاج تشوبه مسحة من الرومانسية. فالصورة التي ستخلعونها عليَّ هي صورة ملك أسود القلب أو صورة حشرة ضخمة، لأنكم تهيمون بالمواقف التي تثير الشجن، وهذه هي شهرتكم. نعم، إني لم أتخذ صولجانا بل اتخذت هيئة أدنى الضباط رتبة، هذه هي الوسيلة التي ألجأ إليها لإغاظتكم، إذ من الخير بقاؤكم في غيظ، أنتم الآن لاتعرفون شيئا، كل ما سيرد عليم جديد ينبغي تعلمه لأول مرة، ستعلمون أن



أظفار ملككم سوداء، وأن زيّه الرسمي محكم وأنه لا يتربع على عرش، بل يشـــغل مقرا للقيـــادة، وأن قصر الملك ثكنة وخيمة صيّده ساحة قضاء. لقد أعلنت حالة الطوارئ وبدأ تنفيذ الأحكام العرفية.

من أجل هذا أســـترعي انتباهكـــم لما أقوله الآن. إنني حين أفد يرحل الشجن، فالشجن محظور هو وهدهدة تخيلات أخـــرى مماثلـــة، كالاجترار الســـخيف للوعة علـــى الهناء وارتضاء العشـــاق بأن تنطق وجوههم بالغباء والاستسلام في أنانية للاســـتغراق في تأمل مشـــاهد الطبيعة، وكذلك نشـــوة الســـخرية الجارحة. بـــدلا من هذا كلـــه أتيت لكم بالنظام الجديد وسوف يضايقكم أول الأمر ولكن ستتبينون أن نظاما وثيقا خير من شـــجن مرذول. ولكي أضرب لكم مثلا على هذه الحكمة البديعة ســـأبدأ بفصل الرجال عن النساء، وسيكون لهذا الفصل قوة القانون.

(يبدأ الحرس في فصل الرجال عن النساء تنفيذا لأمره)

انقضى عهد الهزل وآن اليوم أوان الجد، أظن أنكم أدركتم ما أعنيه، ابتداء من الليلة سوف تتعلمون كيف تموتون وفق نظـــام ثابت. كنتم تموتون حتى اليوم وفق عرف إســـبانيا، كيفما اتفق أو على ســـبيل التجربة كما يقال، كنتم تموتون لأن طقســـا حارا أعقبه طقس بـــارد، لأن بغالكم زلت، لأن سلسلة جبال البرانس بدت ساخرة في غلالتها الزرقاء لأن نهـــر الوادي الكبير دأب في الربيـــع على اقتناص الوحدة، لأن ثمـــة بلهـــاء يعمدون إلى القتل طلبا لكســـب، أو دفاعا عن الشـــرف، على حين أن القتل يصبح أكثر تأنقا إذا كان لمجرد السرور بسداد منطق يقتضيه. نعم كنتم لا تحسنون لقاء المـــوت، فيكم من يموت هنا، ومـــن يموت هناك، هذا في فراشـــه وذاك فـــي حلبة المصارعة، نعـــم كان هذا هو الطيش بعينه، من حســـن الحظ أن هذه الفوضى ستخضع



للانضباط، فلم يعد ثمة سوى ميتة واحدة للجميع، ووفق ترتيب مسجل في قائمة. سيكون المرجع إلى بطاقة معدة لكل واحد منكم، ولن يكون المرجع إلى نزوة طارئة.

لقد أصبح القدر منذ الآن حكيما وجلس إلى مكتبه. ستندرجون في قوائم الإحصاء الشامل، وهكذا، يكون لوجودكم نفع ما، ذلك أنه قد فاتني أن أذكر لكم أنكم ستموتون، فهذا أمر مفروغ منه. ولكنكم ستموتون بعد موتكم، أو حتى قبل موتكم. فهذا أدعى إلى النظافة وتدبير يقضي به النظام. ولتكن إسبانيا هي همنا الأول. الشرط إذن في ميتة طيبة هو وقوفكم في الصف، فإذا أطعتم نلتم رضاي، ولكن حذار من الأفكار الهوجاء ومن غليان النفوس كما تقولون، من ضروب من الحمى الخفيفة التي تتفجر منها ثورات عنيفة، لقد ألغيت الرخص كلها وأحللت المنطق الصارم محلها، فأنا أكره الإخلال بالمساواة وحكم العقل. سيسودكم التعقل إذن ابتداء من اليوم، ومعنى هذا أنكم ترضون برسم علامات عليكم إذا رسمت في أعلى الفخذ كان عليكم أن تحملوا تحت الإبط علنا شكل نجمة ترمز إلى الدمل، وتدل على أنكم في عداد المرشحين للإصابة بالعدوى القاتلة. أما الآخرون ممن يحملون أنفسهم على الاعتقاد أن الأمر لا يعنيهم فليقفوا واحدا وراء الآخر خلف صف الناس المنتظرين فتح أبواب حلبات المصارعة يوم الأحد، وينبغي عليهم الابتعاد عنكم أنتم الذين علقت بهم الشبهة، ولا تشب قلوبكم مرارة لنفورهم منكم، فهذا أمر يخصهم ولا يخصكم، فهم أيضا مدرجون في القائمة، ولن يفلت مني إنسان، فالجميع في اعتباري قد علقت بهم الشبهة، وهذه هي أوفق بداية.

هذا لا يمنع الضعف أمام العواطف، فأنا أحب الطيور وبشائر زهور البنفسج وأفواه العذارى الرطبة، وأغتنم هذه



المتع بين الحين والحين، ففيها استرواح للنفس. لاجرم أنني رجل مثالي فإن قلبي... ولكن حسبي فإني أشعر بأنني ملت إلى الرقة واللين، ولا أريد أن أتمادى في هذا الميل. خلاصة القول أنني جئتكم بالصمت والنظام والعدالة المطلقة، ولا أسألكم شكرا على ذلك فإن الذي أفعله لكم تقضى به طبيعة الأمور.

ولكني أصر على ضرورة مساندتي بمساهمتكم الفعالة. إن عهد حكومتي قد بدأ.

(ستار)

" " "

القسم الثاني



(ميدان في قادش، من ناحية الحديقة مقر حارس المقبرة، من ناحيـة الرحبة رصيف البحر، بالقـرب منه يقوم بيت القاضي.

لدى فتح الستار يعمد اللحادون، وهم في ثياب المسجونين، إلى جمع بعض الجثث. يسـمع صليل عربة نقل الموتى من خلـف الكواليس، ثم تدخل العربة وتقف وسـط المشـهد، ويسـرع المساجين في تعبئتها، ثم تسير نحو مقر الحارس، ومـا تكاد تقف أمـام المقبرة حتى ينبعث صوت موسـيقى عسـكرية، وينفتح شق من بوابة مقر حارس المقبرة فتدخل جموع الناس منه. مقر الحارس يشـبه الجانب الذي تعلوه سـقيفة في فناء مدرسـة، السـكرتيرة تتربع على منصة عالية، من تحتها صف مـن المناضد كالتي توزع من فوقها بطاقـات التموين. ومن وراء منضدة يجلس القاضي الأول بشاربه الأشـيب. وقد أحاط به نفر من الموظفين. يرتفع رنين الموسيقى، وفي الناحية الأخرى يدفع الحراس الجموع أمامهم ويسـوقونهم إلى مقدمة المشهد ويخرجون بهم في مقر حارس المقبرة، وقد فصلوا الرجال عن النسـاء. يضاء وسـط المشـهد، ويرى الطاعون في شـرفة قصره يصدر أوامـره إلى عمال مختفـين، لا يتبين منهم سـوى صوت هرجلتهم من حول المشهد)

الطاعون : يـا هؤلاء، هيا أسـرعوا، كل عمل يسـير ببـطء في هذه المدينة. هذا الشـعب لا حق لـه في العمل، إذ يحب الفراغ والتبطـل وهذا أمر واضح. أما أنا فلا أتصور عقد الأذرع على الصدور إلا في الثكنات وطوابير الانتظار. وهذا النوع من الفراغ لا بأس به، إذ يسترخي عليه القلب والساقان، إنه فراغ لا تتأتى الاسـتعانة به، هيا، ولنتم تشييد البرج الذي يلزمني، فإن المراقبة لم تنتظم بعد، أقيموا من حول المدينة سـياجا من قوائم حديدية لها رؤوس مدببة شـائكة. أما



ربيعي أنا فهو براعم ورد من الحديد، أوقدوا الأفران التي أنــذرتم بها، فنيرانها هي من معالم أفراحنا. أيها الحراس ارســموا نجمتنا على أبواب المنازل التي ستشغل بالي، أما أنت أيتها الصديقة العزيزة فعليك البدء في إعداد قوائمنا وتهيئة شهادات البقاء في قيد الحياة.

(يخرج الطاعون من الجانب الآخر)

الصياد: (وهو الناطق بلسان المحيطين به من زمرته) شهادة بقاء في قيد الحياة، ما فائدتها ؟

السكرتيرة: ما فائدتها، كيف تســتطيع لكي تعيش حياتك أن تســتغني عن شهادة ببقائك في قيد الحياة ؟

الصياد: حتى الآن كنا نعيش على أحسن حال من دون شهادة.

السكرتيرة: ذلــك لأنكم لــم تكونوا محكومين، أمــا الآن فقد أصبحتم كذلــك. والمبــدأ الأعلــى لحكومتنا هو بالــذات أن الموتى في حاجة دائمة إلى شــهادة. قد يتأتى لك الاســتغناء عن الخبز وعن النساء، ولكن لا استغناء لك عن شهادة قانونية تتضمن، إثبات أي أمر من الأمور.

الصياد: منذ ثلاثة أجيال وأسرتي تلقي الشباك، والعمل يسير على خير ما يرام من دون ورقة واحدة مكتوبة، وأقســم لك على ذلك.

صوت: ونحن جزارون أبا عن جد، ولكننا نذبح الخراف لا نستعين بأي شهادة.

السكرتيرة: لقد كنتم تعيشون في فوضى مطبقة، هذا كل ما في الأمر، ولتلاحظــوا أننا لا اعتــراض لنا على المجــازر بل نرحب بها، وكنــا أدخلنا عليها نظاما محكما للمحاســبات وهذه هي ناحيــة تفوقنا. أما عن الصيد الوفير برمي الشــباك فســترون أن لنا عليه قدرة رائعة. ســيدي القاضي الأول. هل لديك الاستمارات؟

القاضي الأول : ها هي ذي.

السكرتيرة : أيها الحراس، تفضلوا بمساعدة السيد على التقدم.

(يساعدون الصياد على التقدم)

القاضي الأول : (يقرأ)

الاسم ولقب الأسرة والصفة.

السكرتيرة : لتعبـــر البيانات التي تعد مـــن قبيل تحصيل الحاصل، فإن السيد سيملأ المسافة البيضاء أمام هذه الأسئلة.

القاضي الأول سيرة حياتك الذاتية...

الصياد : أنا لا أفهم.

السكرتيرة : ينبغي أن تبين هنا الأحداث المهمة في حياتك. تلك وســيلة التعرف عليك.

الصياد : إن حياتي ملك لي، وهذه أمور خاصة لا تهم أحدا.

السكرتيرة : أمـــور خاصة، تلك كلمات لا معنيٍ لهـــا عندنا، الأمر يتعلق طبعا بحياتك العامة وهي على كل الحياة الوحيدة المصرح لك بها. سيدي القاضي انتقل إلى التفاصيل.

القاضي الأول : متزوج ؟

الصياد : سنة ١٩٣١.

القاضي الأول : أسباب القرابة ؟

الصياد : أسباب ؟ إن دمي يفور ويكاد...

السكرتيرة : منصوص على هذا السؤال في القائمة، وهذه وسيلة ناجحة لكي يصبح من العلم الذي يملكه الجميع، فكل ما ينبغي ألا نعده منذ الآن علما مملوك لصاحبه وحده.

الصياد : لقد تزوجت لأن هذا هو ما يفعله المرء حين يكون رجلا.

القاضي الأول : مطلق ؟

الصياد : كلا، أرمل.

القاضي الأول : تزوجت ثانية ؟

الصياد : كلا.

السكرتيرة : لماذا ؟

الصياد : (مولولا)
كنت أحب زوجتي.

السكرتيرة : أمر غريب. لماذا؟

الصياد : أفي قدرة كل إنسان أن يدلي بسبب لكل تصرف له؟

السكرتيرة : نعم، في مجتمع حسن التنظيم.

القاضي الأول : سوابق ؟

الصياد : ماذا أيضا ؟

السكرتيرة : هل حكم عليك للسطو أو للحنث بالقسم أو لهتك عرض؟

الصياد : كلا.

السكرتيرة : رجل شـــريف، وكان هذا ظني بك. سيدي القاضي الأول. أضف عبارة: يراقب.

القاضي الأول : مشاعرك الوطنية.

الصياد : لقد كنت دائما أخدم مواطني، ولم أترك قط فقيرا يمضي من دون أن أقدم له سمكة لا بأس بها.

السكرتيرة : هذه الطريقة في الرد ليست مصرحا بها.

القاضي الأول : آه هذا السؤال يمكنني شـــرحه، فإن المشاعر الوطنية هي كما تعلم طبعا من اختصاص منصبي. الغرض من السؤال أن نعـــرف هل أنت أيها الرجل من هـــؤلاء الذين يحترمون النظام القائم.

الصياد : نعم حين يكون عادلا ومعقولا.

السكرتيرة : أصبحت موضع شـــك، أكتب أن المشاعر الوطنية مشكوك فيها واقرأ السؤال الأخير.

القاضي الأول : (وهو يفك الخط بصعوبة)
أسباب وجودك ؟

الصياد : أمي عاهرة لو كنت أفهم شيئا في هذه اللغة.

السكرتيرة : معنى هذا أن عليك أن تقدم الأسباب التي تجعلك في قيد الحياة.

الصياد : الأسباب. أي أسباب تريدين أن أجدها ؟

السكرتيرة : أفرأيـت. أن الشـك كان علـى حق ؟ خذ بالك ياسـيدي القاضي. فـإن الموقع أدناه يعترف بـأن وجوده لامبرر له، وهذا سـيطلق يدنا بحرية أكثر حين يجيء دوره، وأنت أيها الموقع أدناه يحسن بك أن تدرك أن شهادة الوجود في قيد الحياة التي ستسلم مؤقتة ولها نهاية.

الصياد : مؤقتـة أو غير مؤقتة، أعطنـي إياها حتى أعود أخيرا إلى بيتي حيث ينتظرونني.

السكرتيرة : بـكل تأكيد. ولكن قبـل ذلك يجب تقديم شـهادة صحية تصرف لك بعد بعض الإجراءات الشـكلية في الدور الأول إدارة الشـؤون الجاريـة، مكتب حالات الانتظار والقسـم المساعد.

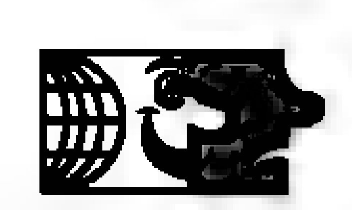
(يخـرج. تصل عربة الموتى في هذه الأثناء إلى باب المقبرة ويؤخذ في تفريغها، ولكن نادا يخرج من العربة مولولا وهو مخمور)

نادا : ولكن بما أني أقول لكم إنني لست ميتا.

(يحاولون إعادته إلى العربة، يهرب ويدخل إلى مقر حارس المقبرة)

نادا : مـاذا دهاكـم. ولو كنت قد مـت لما خفي موتـي. (يلحظ السكرتيرة ويوجه إليها كلامه) آه عفوا.

السكرتيرة : لا عليك. اقترب.



نادا : لقـد حملونـي في عربة الموتـى. وكل ما فـي الأمر أنني أفرطت في الشرب، قصدت به المحو.

السكرتيرة : محو ماذا ؟

نادا : محو كل شيء يا فتاتي، فكلما عم المحو حسن الحال، فإذا تم محو كل شيء فتلك هي الجنة، ولا أبالي بمحو العشاق، فإني أمقتهم، وحين يسـيرون أمامـي أبصق عليهم، على ظهورهم بطبيعـة الحال لأن فيهم من لا تبرأ لهم ضغينة، ولا بالأطفـال فإنهم جنس لعين، ولا بالزهور فهي تطالعنا ببلاهـة، ولا بالأنهار فهي متشـعبة بقصد لا تتحول عنه. هيا بنا نمحو كل شيء، كل شيء، هذه هي فلسفتي، فليحيَ العدم إذن، فلا شيء موجود غيره.

السكرتيرة : وكيف يمكن محو كل ذلك ؟

نادا : بالشراب، الشراب حتى الموت فيختفي كل شيء.

السكرتيرة : هذه خطة رديئة ولنا خطة أفضل. ما اسمك ؟

نادا : عدم في عدم.

السكرتيرة : ماذا قلت ؟

نادا : عدم في عدم.

السكرتيرة : إني أسألك عن اسمك.

نادا : هذا هو اسمي.

السكرتيرة : شـيء جميل. فمثل هذا الاسم يتيح اشتراكنا معا في أداء العمـل كله. تقدم إلـى هذه الناحية. سـتكون موظفا في مملكتنا.

(يدخل الصياد وتوالي السكرتيرة حديثها)

سيدي القاضي، صديقنا عدم في عدم، أطلعه من فضلك على سير الأمور، على حين تقومون أنتم أيها الحراس ببيع شـاراتنا (تتقـدم نحو دييجو) صباح الخيـر. هل لك في شراء إحدى الشارات ؟



دييجو	:	أي شارة تلك ؟
السكرتيرة	:	بطبيعة الحال شارة الانتماء للحكم الجديد الذي أعلنه الطاعون بلسانه عليكم (فترة صمت)، ومع ذلك أنت حرّ في رفضها، إنها لا تفرض على الناس جبرا.
دييجو	:	إذن فأنا أرفض شراءها.
السكرتيرة	:	حسن جدا (تتجه نحو فيكتوريا) وأنت؟
فيكتوريا	:	أنا لا أعرفك.
السكرتيرة	:	عال العال. غير أني أنبهك إلى أن من يرفض حمل الشارة سيضطر إلى حمل غيرها.
دييجو	:	أي شارة إذن ؟
السكرتيرة	:	حسن، شارة من يرفضون حمل الشارة. وهكذا فلأول وهلة يعلم المرء من أمامه.
الصياد	:	اسمحي لي بكلمة...
السكرتيرة	:	(تستدير نحو دييجو وفيكتوريا) إلى اللقاء قريبا (للصياد) ماذا تريد ثانية؟
الصياد	:	(بغضب مطرد) إني قادم من الدور الأول، وقد أجابوني بأنه ينبغي لي أن أعود إلى هنا لكي أحصل على شهادة البقاء في قيد الحياة التي بدونها لا يستطيعون إعطائي الشهادة الصحية.
السكرتيرة	:	هذا أمر كلاسيكي.
الصياد	:	ماذا ؟ كلاسيكي ؟
السكرتيرة		نعم، هذا يدل على أن هذه المدينة بدأت تخضع لإدارة حسنة، إن اقتناعنا أنكم مذنبون، مذنبون لكونكم محكومين بطبيعة الحال، ولذا يجب أن تشعروا أنتم أنفسكم بأنكم مذنبون، ولن تعهدوا في أنفسكم هذا الشعور إلا إذا شعرتم أولا بالتعب. إذن فنحن نتعبكم، هذا كل ما في الأمر. وحين يضنيكم التعب يسير ما تبقى من الأمر تلقائيا.

الصياد	هل لي أن أحصل على الأقل على هذه الشهادة المباركة بأني مازلت في قيد الحياة ؟
السكرتيرة	من حيث المبدأ لا تستطيع الحصول عليها مادمت في حاجة أولا إلى الشهادة الصحية للحصول على شهادة البقاء في قيد الحياة. إذن فلا مخرج في ظاهر الأمر.
الصياد	وإذن ؟
السكرتيرة	بقي أن إرضاءك أصبح معلقا بمزاجنا وحده، وهو سريع التقلب ككل مزاج هوائي، إذن سنعطيك هذه الشهادة منحة استثنائية، غير أنها بكل بساطة ليست سارية المفعول إلا لأسبوع واحد، بعد أسبوع سنرى.
الصياد	سترين ماذا ؟
السكرتيرة	سنرى ما إذا كانت ثمة ضرورة لتحريرها؟
الصياد	وإذا لم تجدد ؟
السكرتيرة	مادام بقاؤك حيا سيصبح غير مضمون بشهادة فإننا سنلجأ في أغلب الأمر إلى الحذف، سيدي القاضي أعد الشهادة من ثلاث عشرة نسخة.
القاضي الأول	ثلاث عشرة ؟
السكرتيرة	نعم، واحدة لصاحب الشأن واثنتا عشرة لحسن سير العمل. (يضاء وسط المشهد)
الطاعون	ابدأوا الأعمال الكبرى التي لا جدوى منها، وأنت أيتها الصديقة العزيزة أعدي قوائم توازن بين الذين سنعد لترحيلهم والذين سنضعهم في معسكرات الاعتقال، واستعجلي تحويل الأبرياء إلى مذنبين حتى تصبح اليد العاملة كافية. لا ترحيل لمن له قيمة مهمة، سوف ينقصنا الرجال بكل تأكيد. أين التعداد ؟
السكرتيرة	يجري إعداده. وكل شيء يسير على ما يرام، يبدو لي أن هؤلاء القوم البسطاء قد فهموا ما قلناه لهم.

الطاعون : ما أسرع إفراطك في الميل إلى الرقة أيتها الصديقة العزيزة، ولك حـــرص على أن يكون كلامك مفهومـــا وهذا خطأ في مهنتنا، هؤلاء القوم البسطاء - كما تقولين عنهم - لم يفهموا شـــيئا بطبيعة الحالة. وليس هذا بالمهم، إنما ألزم اللزوم لا أن يفهمـــوا بل أن يجهز بعضهم على بعض، لقد بهرني هذا التعبير الذي نطقت به عفوا، إذ له معنى سديد.

السكرتيرة : أي تعبير تعني ؟

الطاعون : أن يجهز بعضهم على بعض، هيا أيها الناس فليجهز أحدكم على الآخر، آه يالها من وسيلة مبتكرة لتحقيق الغرض.

السكرتيرة : وسيلة رائعة.

الطاعون : رائعـــة، فيهـــا كل الغناء، تخيل صورة الإجهـــاز، وهو تخيل يرقق القلـــب، ثم تصور كيف أن من هو الضحية يســـاهم نفســـه في الإجهاز عليـــه. هذا هو لـــكل حكومة صالحة هدفها ودعامتها.

(ضوضاء في غيابة المسرح)

الطاعون : ما هذا ؟

السكرتيرة : إنهن النساء اللائي تملكهن الهياج.

الجوقة : هذه لديها ما تقوله.

الطاعون : تقدمي.

المرأة : (تتقدم)

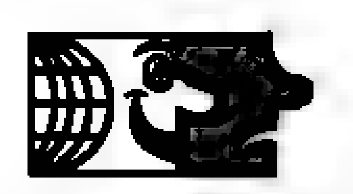
أين زوجي ؟

الطاعون : حســـن، فلننظر في هذا أيضا، إنه خلة قلب الإنســـان كما يقولون. هذا الزوج.

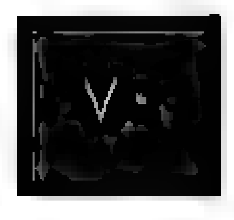
ماذا حدث له ؟

الزوجة : لم يعد إلى البيت.

الطاعون : هذا أمر كثير الحدوث. لا تقلقي، فقد وجد فعلا سريرا.



المرأة	:	هذا رجل يحترم نفسه.
الطاعون	:	بطبيعة الحال إنه العنقاء بين الطيور. شــوفي شغلك أيتها الصديقة العزيزة.
السكرتيرة	:	الاسم واللقب.
المرأة	:	جالفي، أنطونيو
		(السكرتيرة تنظر في مفكرتها، وتهمس في أذن الطاعون)
السكرتيرة	:	حسن. لك أن تسعدي. إن له حياة آمنة.
المرأة	:	أي حياة ؟
السكرتيرة	:	حياته في القصر.
الطاعون	:	نعم. فقد قمت بترحيله إلى القصر مع آخرين كانوا يثورون وأردت إنقاذ حياتهم.
الزوجة	:	(متراجعة) ماذا فعلت ؟
الطاعون	:	(بغضب عصبي شديد)
		لقد شــددت بعضهم إلى بعــض وضغطتهم لكيلا تبقى إلا خلاصتهم. كانوا يعيشون حتى الآن في تشتيت ومجون. أما الآن فلا ميوعة بل قدر أكبر من الصلابة. إنهم ينضغطون للفوز بخلاصتهم.
الجوقة	:	ياللبؤس ! بؤسا لنا !
الطاعون	:	الزمــوا الصمــت، ولاتبق واحدة منكن فــي بطالة. عليكن بعمل ما، اشــغلن أنفسكن (وقد سرح ذهنه) إنهم يجهزون، إنهم ينشــغلون، إنهم ينضغطون.. إن اتبــاع قواعد النحو فــي اللغة غنم جميل. إذ يكون لــه نفع في جميع الأحوال. (إضاءة ســريعة على مقر حارس المقبرة حيث يجلس نادا مع القاضي وأمام صنوف ممن سادهم التنظيم)
رجل	:	لقد اشتد الغلاء وأصبحت الرواتب غير كافية.
نادا	:	كنــا نعلم ذلك، وها هــي ذي الجداول القياســية للرواتب الجديدة قد تم إعدادها.



الرجل : ماذا ستكون النسبة المئوية للعلاوات.

نادا : (يقرأ)

الأمــر غاية في البســاطة: الجــدول القياســي رقم ١٠٨ قرار إعادة تقســيم المرتبات الأصليــة والفرعية في جميع الــوزارات يقضى بإلغاء مربــوط أول الدرجة، ويحدد بلا قيد أو شــرط الانتقال بين الدرجات، ويباح لها بلوغ الحد الأقصى لمربوطها الذي لــم يتحدد بعد، أما الدرجات بعد طرح العلاوات التي تمــت الموافقة عليها صوريا بمقتضى الجدول رقم ١٠٧ فتحــدد مرتباتها وفقا لأول مربوط لها بغير نظر إلى قواعد التنسيق المقررة للوظائف.

الرجل : ولكن كم تكون العلاوة وفق هذا الكلام ؟

نادا : العلاوة ستتقرر فيما بعد، والجاري تطبيقه اليوم هو جدول قياس للمرتبات وسنضيف إليه جدولا آخر، هذا هو كل ما في الأمر.

الرجل : ولكن ما نفع هذا الجدول ؟

نادا : (صائحا) أن تأكلوه وتشربوا ماءه.

(يتقدم رجل آخر)

أنت تريد فتح متجر، فكرة بديعة لعمري. حسن، ابدأ بملء هذه الاستمارة واغمس أصابعك في هذا الحبر وابصم به. تمام.

الرجل : أين أمسح يدي ؟

نادا ليس هناك مكان لمســح الأيدي، لأن التنظيم لم يرد به نص تحديد هذا المكان.

الرجل : ولكن لا يمكن أن أبقى بيد ملوثة هكذا.

نادا : ولــم لا ؟ وعلى كل حال ماذا يهمك من هذا، إذ لم يعد لك الحق في لمس زوجتك، وفوق ذلك في هذا خير لمن كان في مثل حالتك.

الرجل	:	كيف يكون فيه خير ؟
نادا	:	نعـــم إن في ذلك إذلالا لك، إذن فهـــو خير، ولكن لنعد إلى متجرك، أتفضل الاســـتفادة بالمـــادة ٢٠٨ من الباب الـ ٦٢ من النشـــرة السادسة عشـــرة التي ورد بها خامس تنظيم للقواعد العامة، أم بالفقرة ٢٧ من المادة ٢٠٧ من النشـــرة الخامسة عشرة التي تعدّ تنظيما للحالات الفردية.
الرجل	:	ولكني لا أعرف هذا ولا ذاك من تلك الأحكام.
نادا	:	بـــكل تأكيد أيها الرجل، أنت لا تعرفها. ولا أنا أيضا. ولكن مـــادام لا بد من اتخاذ قرار فســـوف نجعلك تســـتفيد من الاثنين معا.
الرجل	:	هذا فضل كبير ياnادا، وإني أشكرك.
نادا	:	لاتشـــكرني، ذلك لأنـــه يبدو أن إحدى هـــذه المواد تعطيك الحق في أن يكون لك مكانك، أما الأخرى فتسلبك حق بيع أي شيء فيه.
الرجل	:	ما هذا ؟
نادا	:	النظام.
		(تأتي امرأة يتملكها الفزع)
نادا	:	ماذا هناك أيتها المرأة ؟
المرأة	:	لقد احتلوا منزلي.
نادا	:	حسن.
المرأة	:	وقد أعدوا فيه مكاتب إدارية.
نادا	:	أمر طبيعي.
المرأة	:	ولكني أصبحت شـــريدة في الطرقات، وقد وعدوا بتوفير مسكن لي.
نادا	:	أنت ترين أنهم فكروا في كل شيء.
المرأة	:	نعـــم، ولكن لا بد من تقديم طلب يأخذ مجراه، وفي انتظار ذلك سيبقى أطفالي في الشارع.



نادا وهذا مبرر أكبر لتقديم طلبك. املئي هذه الاستمارة.

المرأة (تأخذ الاستمارة) ولكن هل سيسير الطلب بسرعة ؟

نادا يمكن أن يسير بسرعة بشرط تقديم مبرر عاجل.

المرأة ما هذا ؟

نادا مستند يثبت أن الأمر عاجل بالنسبة إليك، لكيلا تظلي في الطريق.

المرأة ليس لأطفالي سقف يسترهم، أهناك ما هو أدعى إلى الاستعجال من منحهم هذا المأوى؟

نادا لن يعطوك مسكنا بحجة أن أطفالك في الطريق، ولكن سيعطونك مسكنا لو قدمت شهادة.. الأمران لايستويان.

المرأة مثل هذا الكلام يستعصي عليّ فهمه. إن الشيطان يتكلم هكذا ولا يفهمه أحد.

نادا ليس الأمر محض مصادفة أيتها المرأة. إن الأمر يتعلق هنا بالعمل من أجل ألا يفهم أحد أحدا مع استعمال اللغة نفسها. وأستطيع أن أؤكد لك أننا نقترب من اللحظة المثلى التي يتكلم فيها الجميع من دون أن يكون لكلامهم صدى، والتي تتصادم فيها اللغتان المستعملتان في هذه المدينة وتحطيم إحداهما الأخرى في إصرار يجعل كل شيء يتجه حتما نحو النهاية وهي الصمت والموت.

المرأة : العمل هو أن يأكل الأطفال حتى الشبع، وألا يشعروا بالبرد. العدالة هي أن يعيش صغاري. لقد ولدتهم فوق أرض المرح وقدم البحر مياه تعميدهم، وهم في غير حاجة إلى

معا ثروات أخرى، ولست أطلب شيئا لهم إلا الخبز اليومي ونوم الفقراء. وهذا لا شيء، ومع ذلك فهذا بالذات هو ما ترفضون إعطاءه، وإذا رفضتم الخبز للفقراء فليس ثمة ترف أو كلام معسول أو وعود غامضة تصفح لكم أبدا.



نادا	:	اختاري أن تعيشي جاثية على ركبتيك بدلا من أن تموتي واقفة لكي يجد الكون نظامه مقيسا بأذرع المشانق يتقاسمه بشر هدأوا فـي قبورهم ونمل يعيش بعد اليوم حياة طيبة، كون هو جنة غلاة المتطهرين لا مراعي فيها ولا خبز، تدور فيها
معا		شرطة من الملائكة لها أجنحة كبيرة بين السعداء الذين أكلوا حتى الشـبع من الورق والوصفات المغذية الساجدين أمام رب سـني يحطم كل شيء وقد عقد العزم يقينا على تبديد الهذيـان القديم، هذيان عالم جـاوزت متعته كل الحدود.
نادا	:	ليحيَ العـدم. لم يعد أحد يفهم أحـدا. نحن في اللحظة المثلى.
		(إضاءة في الوسط. يلمح في أحد الجوانب أكواخ وأسلاك شـائكة ومراصد وغيرها من معالم القهر والعداء. يدخل دييجو وهو يرتدي القناع ويبدو من هيئته كأنه كان يفر من مطاردة يلمح معالم القهر والعداء)
دييجو	:	(موجها كلامه للجوقة)
		أين إسـبانيا ؟ أين قادش ؟ إن هذا الديكور لا يمت إلى أي بلد.. إننا في عالم آخر لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه. لماذا أنتم صامتون ؟
الجوقة	:	إننا خائفون. آه لو هبت الريح.
دييجو	:	وأنا أيضا خائف. وحسن أن ينفس المرء عن خوفه بالصراخ. اصرخوا وسوف ترد عليكم الريح.
الجوقة	:	كنا شـعبا فأصبحنا حشـدا، كنا ندعى مجاملة للضيافة فأصبحنا نسـتدعى سـحبا للتحقيق، كنا نتبـادل الخبز واللبن، واليوم أصبح يخصص لنـا تموين بالبطاقات. إننا ندبدب بالأقدام. (يدبدبون بالأقدام) نحن ندبدب بالأقدام ونقـول إن أحدا لن يسـتطيع عمل شـيء لأحد وإنه لا بد مـن الانتظار في مكاننا في الصف الذي حدد لنا، اختفت

إسبانيا. لندبدب بالأقدام. لندبدب بالأقدام. إيه أيها الألم، إننا لا ندوس إلا أنفسنا بالأقدام وإننا نختنق في هذه المدينة المقفلة. أو لو هبت الريح.

الطاعون هذا عين الرشاد والحكمة. اقترب يا دييجو، الآن وقد فهمت. (يسمع صوت إشعاعات في السماء).

دييجو نحن أبرياء.

(الطاعون يقهقه ضاحكا)

دييجو (صائحا)

البراءة أيها الجلاد، أتفهم ذلك ؟ البراءة.

الطاعون البراءة لا أعرفها.

دييجو إذن اقترب. أقوانا سيقتل الآخر.

الطاعون الأقوى هو أنا رب البراءة. انظر.

(يصدر إشارة إلى الحراس الذين يتقدمون نحو دييجو. يولي الأخير الأدبار).

الطاعون اجروا خلفه. لا تتركوه يهرب، فالذي يهرب يصبح ملكا لنا. ميزوه بعلامة.

(يجري حراس خلف دييجو. المطاردة تؤدي بحركات تمثيل صامت وتدور على جنبات المسرح، أصوات صفارات تنفخ بالفم وصفارات إنذار)

الجوقة إنه يعدو، هو خائف ويعترف بذلك. إنه فقد السيطرة على نفسه. لقد انتابه الجنون. أما نحن فقد ثبنا إلى الرشاد وأصبحنا نخضع لنظام، ولكن وسط المكاتب تسمع صراخا طويلا مكتوما، صراخ القلوب التي تعاني مع الفراق والتي تحكي لنا عن البحر في النهار وعن رائحة عيدان الغاب قرب المياه في المساء، وعن أذرع زوجاتنا الرطبة أن وجوهنا مختومة وخطواتنا معدودة وساعاتنا منظمة، ولكن قلوبنا ترفض الصمت. إنها ترفض القوائم والشهادات والجدران

التي لا تنتهي والقضبان على النوافذ والصباح المبكر الذي تزعجه طلقات البنادق. إنها ترفض كل ذلك مثلما ترفض هذا الذي يجري أمامنا لكي يلوذ ببيت هربا من هذا الديكور الذي تشكله الظلال والأرقام لكي يجد في نهاية الأمر مأوى، ولكن المأوى الوحيد هو البحر الذي تفصلنا عنه هذه الجدران، لتهرب الريح حتى نستطيع في نهاية الأمر أن نتنفس.

(دييجو يندفع داخل أحد البيوت. الحراس يتوقفون أمام الباب ويضعون أمامه رقباء يقفون وقفة الديدبان).

الطاعون : (صارخا) ميزوه بعلامة، ميزوهم جميعا، حتى الكلام الذي لا يقولونه يمكن سماعه. إنهم لا يستطيعون الاحتجاج ولكن صمتهم له صليل. حطموا أفواههم وكمموهم وعلموهم الكلمات الرئيسية حتى يكرروا هم أيضا الشيء نفسه، حتى يصبحوا المواطنين الصالحين الذين نحتاج إليهم.

الجزء العلوي من المسرح: يتدفق سيل من الشعارات بنغمة مرتفعة كأنها نداء من مكبرات الصوت وكلما زادت سرعة ترديدها علت قوتها إلى أن غطت همهمات الجوقة المطبقة الأفواه. يسود صمت تام)

طاعون واحد وشعب واحد

انضغطوا في المعتقلات، وليجهز بعضكم على بعض، واشغلوا أنفسكم.

إن طاعونا واحدا جيدا خير من حريتين. عليكم بالترحيل والتعذيب، وستكون هناك بقية مهما كان الأمر.

(إضاءة جهة القاضي)

فيكتوريا : كلا، أيها الأب. إنك لن تسلم هذه الخادمة العجوز بحجة أن العدوى قد أصابتها. هل نسيت أنها قامت بتربيتي من دون أن تنبس بأي شكوى.

القاضي : إذا قطعت في الأمر بقرار فمن ذا الذي يجرؤ على مناقشته؟

فيكتوريا : إنك لا تستطيع أن تقرر كل شيء. إن للألم أيضا حقوقه.

القاضي : إن دوري هو حماية هذا البيت بمنع الوباء من الولوج إليه. إني...

(يدخل دييجو فجأة)

القاضي : من ذا الذي سمح لك بالدخول إلى هنا ؟

دييجو : إنه الخوف الذي دفع بي إلى بيتك. وإني هارب من الطاعون.

القاضي : إنك لا تهرب منه ولكن تحمله معك. (يوجه نظر دييجو بإشارة من إصبعه إلى العلامة التي يحملها الآن تحت الإبط). (صمت وصوت صفارتين أو ثلاث من بعيد) غادر هذا البيت.

دييجو : أبقني لديك. إذا طردتني فسيخلطونني بالآخرين، ومعني ذلك تكديس الموت.

القاضي : إني خادم القانون القديم، ولا أستطيع استقبالك هنا.

دييجو : لقد كنت تخدم القانون القديم. ولا شأن لك بالقانون الجديد.

القاضي : إني لا أخدم القانون من أجل ما يقضى ولكن لأنه القانون.

دييجو : ولكن إذا كان القانون هو الجريمة ؟

القاضي : إذا أصبحت الجريمة هي القانون فستكف عن كونها جريمة.

دييجو : والفضيلة هي التي ينبغي توقيع العقاب عليها.

القاضي : الواقع أنه ينبغي توقيع العقاب عليها إذا تبجحت وناقشت القانون.

فيكتوريا : يا كازادو، ليس القانون هو الدافع لك على تصرفك، بل هو الخوف.



القاضي : وديجو هو أيضا خائف.

فيكتوريا : ولكنه لم يخن أحدا.

القاضي : سـوف يخون، كل فرد يخـون لأن كل فرد خائف، وكل فرد خائف، لأن أحدا ليس مطهرا.

فيكتوريا : إني ملك هذا الرجل يا أبي، وقد وافقت أنت على ذلك. ولا يمكن أن تنتزعه مني اليوم بعد أن أعطيتني إياه بالأمس.

القاضي : لـم أقل نعم فيما يتعلق بزواجك، بـل قلت نعم فيما يتعلق برحيلك.

فيكتوريا : كنت أعرف أنك لاتحبني.

القاضي : (ناظرا إليها)

إني أمقت النساء جميعا.

(دقات عنيفة على الباب)

ما هذا ؟

(حارس من الخارج)

إن البيـت قد قضـي عليه بالغلق لإيوائه مشـبوها، جميع السكان مراقبون.

دييجو : (يقهقه ضاحكا)

إن القانـون جيد كما تعلم ذلك حق العلم، ولكنه يعد حديثا نوعا ما فلم تسـتطع أنت أن تحيط بكل جوانبه. القاضي والمتهمون والشهود. ها نحن جميعا أصبحنا إخوة.

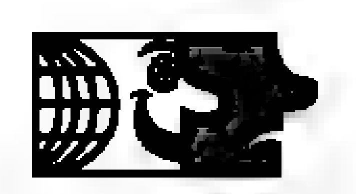
(تدخل زوجة القاضي وابنه الصغير وابنته)

الزوجة : لقد انغلق الباب بالمتاريس.

فيكتوريا : لقد قضي على البيت بالغلق.

القاضي : بسببه. وسوف أبلغ عنه، وحينئذ يفتحون الباب.

فيكتوريا : إن الشرف يمنعك من ذلك.



القاضي : إن الشـرف مسـألة خاصة بالناس، ولم يعد ثمة ناس في هذه المدينة.

(تسمع طلقات صفارات وصوت جرس يقترب - دييجو يسمع ويلقي نظرات مجنونة في كل جانب ويمسك فجأة بالطفل)

دييجو : انظر يا رجل القانون. لو أتيت بحركة واحدة فسوف أحطم فم ابنك فوق علامة الطاعون.

فيكتوريا : دييجو، هذه نذالة.

دييجو : لا شيء يسمى نذالة في مدينة الأنذال.

الزوجة : (تهرع نحو القاضي)

عده ياكازادو، عد هذا المجنون بما يريد.

ابنة القاضي : كلا يا أبت لا تفعل شيئا. هذا أمر لايعنينا.

الزوجة : لا تستمع إليها. أنت تعرف تمام المعرفة أنها تكره أخاها.

القاضي : إنها على حق، فهذا أمر لا يعنينا.

الزوجة : وأنت أيضا تكره ابني.

القاضي : ابنك أنت في الحقيقة.

الزوجة : آه. ليـس من الرجولة ألا تتورع عن ذكر أمر سـبق لك أن غفرته.

القاضي : أنـا لم أغفر. لقـد اتبعت القانون الـذي يجعلني أبا لهذا الطفل في نظر الجميع.

فيكتوريا : أهذا صحيح يا أماه ؟

الزوجة : أنت أيضا تحتقرينني.

فيكتوريا : كلا، ولكـن كل شـيء ينهار فـي وقت واحـد. إن النفس لتستريح.

(القاضي يخطو خطوة نحو الباب)

دييجو : النفـس تترنـح ولكن القانون يسـندنا، أليـس كذلك أيها



القاضي، الكل إخوة (يمسك بالطفل أمامه) وأنت أيضا سأمنحك قبلة.

الزوجة : انتظر يا دييجو، أتوسل إليك. لا تكن مثل الذي تحجر حتى أصبح قلبه أيضا من حجر.

(تهرع ناحية الباب تسد الطريق أمام القاضي)

سوف تلين أليس كذلك ؟

ابنة القاضي : لماذا يلين؟ وماذا يستفيد من هذا الطفل غير الشرعي الذي يملأ هذا المكان كله؟

الزوجة : اسكتي، إن الحسد يأكلك، وها أنت قد أصبحت شريرة الخلق من الرأس إلى القدم. (للقاضي) ولكن أنت، أنت الذي تقترب من الموت، أنت تعرف حق المعرفة أن ليس ثمة ما يدعو إلى الحد من هذه الأرض إلا النوم والسلام. أنت تعرف تمام المعرفة أنك ستنام نوما غير هنيء في فراشك المنفرد لو فعلت ذلك.

القاضي : إن القانون في صفي، وهو الذي سيسبب راحتي.

الزوجة : إنـي أبصق على قانونك. أما أنا ففي صفي الحق، حق أولئك الذين يحبون ألا يفترقوا، حق المذنبين في الحصول على العفو وحق النادمين في الإشادة بهم وتبجيلهم، نعم إني أبصق على قانونك. هل كان القانون في صفك حين قدمت من جانبك اعتذارا لهذا الضابط الذي استفزك للمبارزة ؟ وحين لجأت إلى الغش لتهرب من التجنيد ؟ هل كان القانون في صفك حين دعوت إلى فراشك هذه الفتاة التي كانت تخاصم رئيسها النذل ؟

القاضي : اسكتي أيتها المرأة.

فيكتوريا : أمي.

الزوجة : كلا يا فيكتوريا، لن أسكت. لقد لذت بالصمت سنوات طوالا. فعلت ذلك من أجل شرفي ولوجه الله. أما الشرف

فلم يعد له وجود. وشعرة واحدة من هذا الطفل أثمن عندي من كل شيء. لن أسكت وسأقول على الأقل لهذا الرجل إن الحق لم يكن قط في صفه، ذلك لأن الحق، أتسمع ياكازادو؟ هو مع الذين يتعذبون ويتأوهون ويتألمون، إنه ليس مع الذين يحسبون ويكدسون. هيهات أن يكون معهم.

(دييجو يخلي سبيل الطفل)

ابنة القاضي : إنها حقوق الزانية.

الزوجة : (صائحة) إني لا أنكر خطئي، بل سأعلنه على العالم أجمع. ولكني وقد حاق بي البؤس أعلم أن للجسد أخطاءه بينما للقلب جرائمه. ومما تقترفه في لهيب الحب ينبغي أن يثير العطف.

الابنة : العطف على إناث الكلاب.

الزوجة : نعم، لأن لهن بطونا للمتعة والإنجاب.

القاضي : إن دفاعك غير صائب يا امرأة، وسوف أبلغ عن هذا الرجل الذي سبب هذا الاضطراب، وسوف أفعل ذلك برضا مزدوج مادمت أفعله باسم القانون وباسم الكراهية.

فيكتوريا : تبا لك إذ تنطق بالحقيقة من فورك. إنك لم تحكم قط إلا باسم الكراهية التي تزخرفها وتقول إنك تحكم باسم القانون. وحتى أفضل القوانين قد فسد طعمها في فمك فقد كان الفم المر لهؤلاء الذين لم يحبوا قط. آه! إن التقزز يخنقني. هيا يا دييجو خذنا جميعا بين ذراعيك. ولنتعفن معا. ولكن دع هذا الرجل يعش فالحياة بالنسبة إليه عقاب.

دييجو : اتركيني. إني أخجل لرؤية ما وصلنا إليه.

فيكتوريا : وأنا أيضا خجلة حتى الموت.

(دييجو يقفز فجأة من النافذة. القاضي يجري هو الآخر. فيكتوريا تهرب من باب خفي).

الزوجة	لقد حان الوقت الذي لا بد أن يتفجر فيه من كل دمل قيحه. نحن لسنا الوحيدين، إن المدينة بأسرها تعاني من نفس الحمى.
القاضي	أيتها الكلبة.
الزوجة	أيها القاضي.
	(ظلام. الإضاءة توجه إلى مقر حارس المقبرة نادا والقاضي يستعدان للانصراف).
نادا	لقد صدر أمر إلى جميع رؤساء الإدارات بأخذ أصوات الواقعين تحت إدارتهم في مصلحة الحكومة الجديدة.
القاضي الأول	إن الأمر ليس بهذه السهولة. إن البعض قد يصوت ضدهم.
نادا	كلا، لو اتبعت المبادئ الصحيحة.
القاضي الأول	المبادئ الصحيحة ؟
نادا	إن المبادئ الصحيحة تقول: إن الانتخاب حر. معنى ذلك أن الأصوات التي في مصلحة الحكومة سيعتبر الإدلاء بها عن تمتع بحرية وإبداء الرأي. أما غيرها من الأصوات فلكي يتم استبعاد كل العقبات الخفية التي ربما اعترضت حرية الانتخابات فإنها ستحصى وفقا لقاعدة الأفضلية بأن يطابق بين متوسط الفروق بين الأصوات المدرجة في القوائم المحلية، وبين حاصل قسمة عدد الأصوات التي لم يدل بها على ثلث عدد الأصوات المستبعدة. معنى هذا واضح؟
القاضي الأول	واضح ياسيدي... أخيرا. أعتقد أنني فهمت.
نادا	إني معجب بك أيها القاضي. أما أنك فهمت أم لا فلا تنس أن النتيجة الحتمية لهذه الطريقة لا بد أن تكون باعتبار الأصوات المعادية للحكومة ملغاة.
القاضي الأول	ولكنك قلت إن الانتخاب حر.



نادا : وإنــه لكذلك في الواقع. ولكننا ننطلق من مبدأ أن الصوت الذي يقول لا ليس صوتا حرا. إنه منقاد للعواطف فهو إذن صوت تتحكم فيه الشهوات.

القاضي الأول : لم يخطر هذا على ذهني.

نادا : ذلك لأنك لم تكن لديك فكرة صحيحة عما هي الحرية.

(إضاءة في الوســط. يصل دييجو وفيكتوريا وهما يجريان في مقدمة المسرح)

دييجو : أريــد الهرب يــا فيكتوريا. لم أعد أعرف مــا هو الواجب عمله، لقد أسقط في يدي.

فيكتوريا : لاتتركنــي. الواجب هو في البقاء بالقرب من الذين نحبهم فاصمد واثبت.

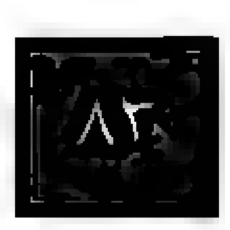
دييجو : ولكــن من فرط اعتدادي بكرامتي لا أرضى أن أحبك. وأنا غير معتز بنفسي.

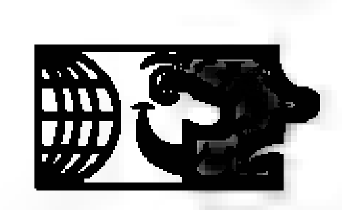
فيكتوريا : وما الذي يمنعك من الاعتزاز بنفسك ؟

دييجو : أنت، فإني أراك أثبت مني.

فيكتوريا : آه. بحــق حبنا لا تســمعني مثل هذا الكلام، وإلا فســوف أســقط وأكشــف لك عن جبني كله، فإني لا أبلغ من القوة هذا الحــد الذي تظن. إنــي أتضعضــع وأتضعضع حين أفكر في اللحظة التي أســتطيع أن أسلم إليك نفسي. أين العهد الذي كان قلبي يوشــك فيه على الغرق فور أن يذكر اســمك؟ أين العهد الذي كنت فيه فور مثولك أمامي أسمع صوتا في دخيلة نفسي يهتف: هذه هي نجدة الغريق. نعم، إنني أتضعضع وأموت من حســرة طغى عليها الجبن، وإذا كنــت لا أزال واقفة على قدميَّ لــلآن فإن دفعة للحب هي التي تقذفني إلى الأمام. أما إذا اختفيت أنت فإن ســيري سينقطع وسأسقط متهاوية.

دييجو : آه لــو كنت أســتطيع على الأقل أن أرتبــط بك وأن ترتبط





أطرافي بأطرافك ونغرق في أعماق نوم لا نهاية له.

فيكتوريا : إني في انتظارك.

(يتقدم ببطء نحوها وهي تتقدم نحوه. أنظارهما لا تفترق ويوشكان على الالتقاء حين تنتصب السكرتيرة بينهما)

السكرتيرة : ماذا تفعلان ؟

فيكتوريا : (صائحة) هو الحب بكل تأكيد.

(ضجيج هائل في السماء)

السكرتيرة : صه. ثمة كلمات لا يجوز النطق بها. وكان عليكما معرفة أن ذلك ممنوع. (توجه كلامها إلى دييجو) انظر

(تضرب على الإبط وتضع عليه العلامة الثانية)

السكرتيرة : لقد كنت مشبوها. أما الآن فأنت مصاب. (تنظر إلى دييجو) يا للأسف. شاب في مثل هذه الوسامة (لفيكتوريا) معذرة.. ولكني أفضل الرجال على النساء، وأنا متحيزة لهم، عمت مساء.

(دييجو ينظر في ارتياع إلى العلامة الثانية فوق جسمه، ويلقي بنظرات مخبولة حوله، ثم يندفع نحو فيكتوريا، ويمسك بجسمها كله)

دييجو : آه. إني أكره جمالك مادام سيبقى في الوجود من بعدي. عليه اللعنة إذا تمتع به الآخرون.

(يضمها إليه في عنف يكاد يسحقها)

هكذا لن أكون وحدي. ماذا يجديني حبك لو لم يصبه التعفن معي ؟

فيكتوريا : (تتأود) إنك تؤلمني. دعني.

دييجو : أنت خائفة؟ (يضحك كالمجنون ويهزها) أين هي جياد الحب السوداء. أنت عاشقة حين يصفو الجو. ولكن حين تحل المحنة تهرب الجياد. على الأقل فلتموتي معي.



فيكتوريا	معك ولكن لن أموت أبدا وأنا ملتصقة بك، فأنا أكره معالم الخوف والكراهية التي بدت على وجهك. اتركني دعني حرة لكي أبحث فيك عن الحنان القديم. ثم سيتكلم قلبي من جديد.
دييجو	(يفلتها بعض الشيء) إني لا أريد أن أموت وحدي وأعز من لي في الوجود كله تشيح عني وترفض أن تتبعني.
فيكتوريا	(تلقى بنفسها نحوه) آه يا دييجو، معك إلى جهنم لو لزم الأمر وسوف نلتقي ثانية... إن ساقيّ ترتعشان لصق ساقيك. قبلني لو أن هذه الصرخة التي تتصاعد من أعماق جسدي والتي ستنطلق، ها هي ذي تنطلق... (تصرخ) آه (يقبلها في انفعال، ثم ينتزع نفسه منها، ويتركها ترتعد وسط المسرح)
دييجو	استديري نحوي. كلا كلا ! ليس بك شيء. لاتوجد أي علامة، لن تكون ثمة نتيجة لهذا الجنون.
فيكتوريا	عد، إذا كنت أرتعد الآن فمن البرد، كان صدرك منذ لحظة يحرق يدي، وكان دمي يجري في جسدي كاللهب، والآن...
دييجو	كلا. اتركيني بمفردي. إني لا أستطيع أن أتسلى عن هذا الألم.
فيكتوريا	عد، إني لا أطلب شيئا سوى أن أحترق بنفس الحمى، وأن أتعذب بنفس الجرح في صرخة واحدة.
دييجو	كلا، سأكون منذ الآن مع الآخرين، مع الذين يحملون العلامات. إن عذابهم يروعني ويملؤني بتقزز كان حتى الآن يفصلني عن كل شيء.. ولكني أخيرا أجد نفسي في المصيبة ذاتها. وهم في حاجة إليَّ.
فيكتوريا	إذا كان لا بد أن تموت فسأحسد حتى الأرض التي ستقترن بجسدك.
دييجو	أنت من الجانب الآخر مع هؤلاء الذين يعيشون.



فيكتوريا يمكنني أن أكون معك إذا قبلتني وقتا طويلا.

دييجو لقد حظروا الحب. آه إني لآسف عليك من كل قلبي.

فيكتوريا كلا كلا. أتوسل إليك. لقد فهمت ما يريدون. إنهم يعدّون كل شيء لكي يصبح الحب مستحيلا، ولكني سأكون الأقوى.

دييجو أما أنا فلست الأقوى. وليست الهزيمة هي التي كنت أريد اقتسامها معك.

فيكتوريا لا ترضيني سوى الحدود القصوى، ولا وسط عندي ولا أعرف سوى حبي. لم يعد شيء يخيفني. وحين تتداعى السماء فسوف أتردى في الهوة السحيقة، وأنا أهتف بحبي لو كنت أمسك بيدك.

(يُسمع صراخ)

دييجو الآخرون يصرخون هم أيضا.

فيكتوريا لقد أصبحت صماء حتى الموت.

دييجو انظري.

(عربة الموتى تمر)

فيكتوريا لم تعد عيناي تبصران، فقد بهرهما الحب.

دييجو ولكن الألم كامن في هذه المصائب التي تثقل وطأتها علينا.

فيكتوريا ينبغي لي أن أكد لكي أحمل حبي، فلن أعود إلى إثقال كاهلي بحمل آلام الناس أيضا، هذا واجب يقع على عاتق الرجال. إنه من هذا النوع من الواجبات غير المجدية، العقيمة، العتيدة التي تشغلون بها لكي تتفادوا المعركة الوحيدة التي تعد عسيرة، لكي تتفادوا النصر الوحيد الذي يحق لكم الزهو به.

دييجو ما الذي أستطيع أن أقهره في هذا العالم، اللهم إلا الظلم الذي وقع علينا.

فيكتوريا	أن تقهر الفجيعة التي منيت بها في نفسـك، وكل شيء بعد ذلك هين.

دييجو — إني وحيد، والفجيعة أكبر من أن أستطيع قهرها.

فيكتوريا — أنا بالقرب منك والسلاح في يدي.

دييجو — كم أنت جميلة وكم كنت أحبك لو لم أكن أخشى...

فيكتوريا — لو قصدت أن تحبني لما بقي شيء تخشاه كثيرا.

دييجو — إني أحبك ولكن لا أدري من هو الذي على حق ؟

فيكتوريا — ذلك الذي لا يخشـى شـيئا وقلبي ليس جبانا. إنه يحترق بلهيـب واحد صاف عـال مثل تلك النار التـي يتبادل بها رجـال الجبال عندنـا تحية بعضهم لبعـض. إن تلك النار تدعوك هـي أيضا.. انظر، هذا هو عيـد القديس يوحنا توقد فيه النيران.

دييجو — وسط حفر ملأى بالجثث.

فيكتوريا — لتكـن حفرا ملأى بالجثـث أو لتكن مراعي، فما دخل هذا بحبي، إنه على الأقل لا شر منه على أحد، إنه معطاء كريم، أما جنونك وإخلاصك العقيـم فلمن يعود خيرهما ؟ على كل حال ليس لي أنا التي تطعنها كل كلمة منك.

دييجو — أنـت أبيّة فلا تبكـين. إيه أيها اليأس ! لمـاذا حل بنا هذا المرض ؟ كم كنت أود أن أحتسـي تلك الدموع وبفم لايزال ملتهبا بمرارتها أرشـق خدك بقبلات عدد أوراق شـجرة الزيتون.

فيكتوريا — آه، ها أنـا أعثر عليك، تلك هي لغتنا التي افتقدتها. (تمد له يدها) دعني أتعرف عليك.

(دييجو يتراجع وهو يشـير إلـى العلامتين اللتين يحملهما وهي تمد يدها مترددة).

دييجو — أنت أيضا خائفة.



(تلصق يدها على العلامتـين وهو يتراجع فزعا وهي تمد ذراعيها)

فيكتوريا : تعال بسرعة. لاتخش شيئا.

(ولكن التأوهات واللعنات تتضاعف، هو ينظر إلى كل جانب كأنه كان مخبولا ثم يولي الأدبار)

فيكتوريا : إيه أيتها الوحدة !

جوقة من النساء : نحن حارسان، إن هذه المسألة لا طاقة لنا على فهمها وعلاجها، ونحن في انتظار نهايتها سنظل نتكتم سرنا إلى أن يأتي الشتاء. وتحل ساعة الحرية حين تصمت تأوهات الرجال فيعودون إلينا مطالبين بها لا غنى لهم عنه، ذكرى البحار الطليقة وسماء الصيف الخالية وعطر الحب الأبدي. أما قبل ذلك فنحن كأوراق الشجر التي جفت وماتت تحت وابل الخريف قد تتطاير وتسبح قليلا في الهواء، فإذا بثقل الماء الذي تسقى به يهوي بها حتى تتوسد الأرض، نحن الآن أيضا نتوسد الأرض، ونحني الظهور ونترقب أن تتقطع أنفاس صرخات كل المعارك، وننصت في أعماق قلوبنا إلى هذا الأنين الشجي لأمواج البحار الهنية وهي ترتد عن الصخور. وحين تتلفع أشجار اللوز بثوب من زهور ناصعة البياض كأنها ندف من الثلج جمدت عليها سوف ننهض من الأرض قليلا استجابة لأول هبوب للأسل، ثم نقف على الأقدام معتدلات في بهاء ربيع اختلس أوانا غير أوانه، كل الذين نحبهم يقبلون إلينا وكلما تقدموا تزداد شبها بهذه القوارب التي اثاقلت إلى رمال الشاطئ ورقدت فوقها إبان جزر البحر، ثم إذا بالمد يقبل فيحتويها ويرفعها قليلا قليلا وقد علق بها كساء لزج من الماء والملح ومن نصيب من روائح شتى نفاذة، إلى أن تطفو أخيرا دون البحر العميق، أفلا يهب الريح ... أفلا يهب الريح ؟!

ظلام	(إضاءة على الرصيف. دييجو يدخل ويدعو شخصا يلمحه بعيــدا جدا في اتجاه البحر. في داخل المســرح جوقة من الرجال)
دييجو	أو هيه. أو هيه
صوت	أو هيه، أو هيه
	(يظهر ملاح. رأسه فقط هو الذي يتعدى الرصيف).
دييجو	ماذا تفعل ؟
الملاح	إني أنقل مؤونة.
دييجو	للمدينة ؟
الملاح	كلا. المدينة من حيث المبدأ تتولى الإدارة تموينها، بالبطاقات طبعا. أما أنا فأنقل مؤونـــة من الخير واللبن، ففي عرض البحر سفن ألقت مراسيها، وقد لاذت بها بعض الأسر هربا من العدوى. إني أحمل رسائلهم وأعود إليهم بمؤونتهم.
دييجو	ولكن هذا محظور.
الملاح	إنه محظــور من الإدارة، ولكني لا أعرف القراءة وكنت في البحر حين أعلن المنادون القانون الجديد.
دييجو	خذني معك.
الملاح	إلى أين ؟
دييجو	إلى البحر، إلى ظهور السفن.
الملاح	تلك مسألة محظورة
دييجو	إنك لم تقرأ القانون ولم تسمعه.
الملاح	آه. إنــه ليــس محظورا مــن الإدارة، ولكن ممــن هم فوق السفينة. إنك لست مأمونا.
دييجو	كيف إنني لست مأمونا.
الملاح	تستطيع على كل حال أن تحملها معك.



دييجو	ماذا أحمل معي ؟
الملاح	صه (ينظر حوله) الجراثيم بــكل تأكيد. فقد تحمل إليهم الجراثيم.
دييجو	سأدفع ما يطلب مني.
الملاح	لا تلح فإني ضعيف الإرادة.
دييجو	كم تطلب من النقود ؟
الملاح	هل تأخذ الأمر على عاتق ضميرك؟
دييجو	حسن.
الملاح	اركب، البحر وادع.
	(دييجــو يوشــك على القفــز، ولكن الســكرتيرة تبدو من خلفه)
السكرتيرة	كلا، لن تبحر.
دييجو	ماذا ؟
السكرتيرة	لم يتقرر ذلك، ثم إني أعرفك. ولن تهرب من الميدان.
دييجو	لن يستطيع أحد أن يمنعني من الرحيل.
السكرتيرة	يكفي أن أريد ذلك، وأنا أريده مادام لي شــأن معك... أنت تعرف من أنا.
	(تتراجع قليلا كأنها تشده إلى الخلف. يتبعها)
دييجو	أن أموت هذا ليس بشيء ولكن أن أموت ملوثا.
السكرتيرة	أفهم رأيك، وأنا كما ترى غير مكلفة إلا بالتنفيذ، في الوقت نفسه، ولهذا السبب بعينه منحت لي حقوق عليك سمها إن شئت بحق الفيتو.
	(تتصفح مفكرتها)
دييجو	إن الناس الذين من جنسي لا يمتون بصلة إلا إلى الأرض.
السكرتيرة	هــذا هو ما أردت أن أقول. أنــت في حوزتي على نحو ما،

على نحو ما فحسب، قد لا يكون النحو الذي أفضله، وحين أنظــر إليك. الواقع أنك تروق لي كثيرا كما تعلم ولكن ثمة أوامر صادرة إليّ.

(تلهو بمفكرتها)

ديبجو : كراهيتك لي أفضل عندي من ابتساماتك. إني أحتقرك.

السكرتيرة : كمـــا تريد فإن تبادل مثل هذا الحديث بيني وبينك مخالف للنظـــام بعض المخالفة، إن الإعياء هو الذي جعل العواطف تتغلب عليّ، من معاناتي للحســـابات التـــي لا تنتهي، وفي أمسية مثل هذه الأمسية أرخي لنفسي زمامها.

(أصابعها تدير المفكرة. يحاول دييجو أن ينتزعها منها)

السكرتيرة : هذا محال صدقني، وعلى كلٍّ ماذا عســـاك أن تجد فيها، هـــذه مفكرة وليس غيـــر، غير أنها تكفينـــي وهي بمنزلة ملف نصفه لتسجيل الحوادث ونصفه لتلخيص البطاقات، (ثم وهي تضحك) وبها أيضا طالع كل يوم فوق الحســـاب الفلكـــي. إنها المفكـــرة الصغيرة التي تلازمني... لا شـــيء ســـوى ذلك. (تمد له يدها كأنهـــا تريد أن يداعبها، دييجو يندفع ثانية نحو الملاح)

دييجو : آه لقد رحل.

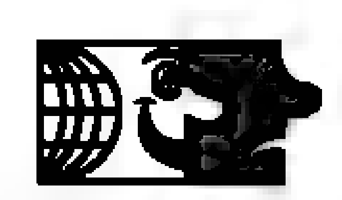
السكرتيرة : عجبا، لقد رحل فعلا، ها هو ذا رجل آخر يظن نفسه حرا مع أنه مقيد في السجلات مثل الجميع.

دييجو : ينتقـــل كلامك من لون إلى لون. تعرفـــين أن هذا هو ما لا يستطيع إنسان احتماله، فلننه المسألة من فضلك.

السكرتيرة : ولكـــن هذا التلون لا مشـــكلة فيه فما هـــو إلا لأنني التزم الصدق دائما. لكل مدينة ملفها، وهذا هو ملف قادش اذكر لك أن التنظيم محكم، ولا ينسى أحدا.

دييجو : لا ينسى أحدا ولكن الجميع يفلتون من قبضة يدكم.

السكرتيرة : (فـــي غيظ) كلا. مـــا هذا الذي تقـــول ؟ (تفكر) ومع ذلك



هناك استثناءات بين الحين والحين. قد ينسى التنظيم إنسانا ولكن مآل الجميع أن يكشفوا له أنفسهم بأنفسهم ويسترعوا انتباهه إليهم، وأنهم لايتجاوزون مائة عام إلا رأيتهم في زهو كبير لطول عمرهم يا للحمقى، فإن الصحف تعلن خبرهم وتشيد بهم، ما عليَّ إذن إلا أن أصبر وأنتظر، ففي كل صباح تأتيني الصحف وأفلي أخبارها. فإذا وجدت فيها ذكرا لأسمائهم قمت بتسجيلها إنني افطر بأسمائهم إن شئت أن أقول. لا مهرب لهم بطبيعة الحال.

دييجو : ولكنهم سيكونون قد عاشوا مائة عام وهم ينكرونك كما تنكرك هذه المدينة بأسرها.

السكرتيرة : مائة عام ليست شيئا يذكر. إنها تبهرك لأنك ترى الأشياء فرادى ومن قرب شديد. أما أنا فلي نظرة مستعلية تشمل الأشياء مترابطة في مجموعها، هذا هو تفسير ما غاب عنك، وفي ملف يضم ثلاثمائة واثنين وسبعين ألف اسم، اسألك ما قيمة رجل واحد، حتى ولو بلغ المائة من العمر، ثم إننا نعوض من نخسره من أمثاله بشباب لايتجاوزون العشرين من العمر، فمتوسط الحصيلة ثابت، ولايستدعي ثباته إلا أن نسرع في الحذف قليلا، هذا هو كل ما في الأمر.

(تحذف اسما في الدفتر. صرخة فوق البحر وصوت سقوط في الماء)

السكرتيرة : آه. لقد فعلت ذلك من دون تفكير مني. إنه الملاح. مجرد مصادفة.

(دييجو ينهض وينظر إليها بتقزز وارتياع)

دييجو : إني أكاد أتقيأ من فرط تقززي منك.

السكرتيرة : إن مهنتي جحود وأنا أعرف ذلك. إنها متعبة ولكن لا بد من إتقانها، وفي البداية مثلا كنت أتحسس طريقي بعض الشيء، أما الآن فيدي ثابتة.

(تقترب من دييجو)

دييجو: لا تقتربي مني.

السكرتيرة: من قليل لن تكون عودة للوقوع في الخطأ وستصان الأسرار. إنها آلة متقنة كما سترى.

(مع كل جملة منها تزداد اقترابا منه حتى تكاد تلمسه، يمسكها فجأة من خناقها وهو يرتعد من الغضب)

دييجو: خلصيني وأتمي إذن مهزلتك الحقيرة، ماذا تنتظرين؟ أنجزي عملك ولا تعبثي بي، فأنا أسمى منك. اقتليني إذن، تلك هي الوسيلة الوحيدة. أقسم لك. على صون هذا المنهج البديع الذي لا يترك شيئا للصدف. آه، إن قلت إن نظرتك لا تشمل الأشياء إلا في مجموعها، فلأنه حين يكون الحساب بعشرات الألوف فإن هذا وحده هو الذي يسيل له لعابك. إنه يتحول إلى جداول إحصاء، وجداول الإحصاء خرساء، تترجم إلى منحنيات ورسوم بيانية، أليس كذلك؟ إنه عمل يتناول الأجيال المتعاقبة لا جيلا واحدا، فهو أكثر يسرا، عمل تتاح تأديته في صمت وتحت أنفاس مداد واحد في محبرة. ولكن لا بد لي من تحذيرك، إن رجلا فردا متوحدا تصبح به دنياك أشد ضيقا، لأنه مسكين بأفراحه وأوجاعه، وسأظل مادمت حيا أخلخل نظامك البديع بصرخات أطلقها قد تعد عندكم صدفة، إني أرفضك، أرفضك بكل كياني.

السكرتيرة: أيها الحبيب.

دييجو: اخرسي. إنني أنتمي إلى جنس كان يقدس الموت مثلما يبجل الحياة. ثم جاء رؤساؤك فأصبح الموت والحياة كلاهما عار.

السكرتيرة: صحيح...

دييجو: (يهزها) صحيح أنك تكذبين وسوف تكذبين باستمرار حتى نهاية الزمن. نعم لقد فهمت نهجك. لقد أعطيتهم ألم



الجوع والفراق حتى تلهيهم عـن ثورتهم. إنك تعملين على إنهاكهـم والتهام رزقهم حتى لا تكون لهم فسـحة أو همة للغضب، كل منهم في وحدة، على رغم أنه في حشـد، وأنا أيضـا وحيد، كل منا أصبح وحيدا بسـبب جبن الآخرين. أما أنا الذي اسـتعدت مثلهم وأشعر بالمذلة معهم فإني مع ذلـك أعلن لك أنك لا شـيء وأن هذا النفـوذ الذي امتد حتـى جاوز البصر، حتى أظلمت له السـماء ليس إلا ظلا ألقـي على الأرض مـا تلبث الريح الثائـرة أن تبدده. لقد ظننت كل شيء يمكن أن يتحول إلى أرقام وصيغ. ولكن في قائمتك المباركة نسيت الوردة البرية وعلائم السماء ووجوه الصيـف وصوت البحر الكبير ولحظـات التمزق وغضب النـاس، (تضحك) لا تضحكي أيتهـا الحمقاء. لقد ضعتم وأنا أقولها لك. فوسـط أكبـر انتصاراتكم البادية أنتم قد هزمتـم لأن في الإنسـان، انظري إليّ، قوة لن تسـتطيعي قهرها، هي جنون محض يتقاسمه الخوف والشجاعة معا، إنها جاهلـة ومنتصرة إلى الأبد. إن هـذه القوة هي التي ستنهض، وحينئذ ستعلمين أن انتصارك لم يكن إلا دخانا. (تضحك)

دييجو : لا تضحكي. لا تضحكي إذن.

(تضحك. يصفعها وفي الوقت نفسـه ينتزع رجال الجوقة الكمامات من أفواههـم ويطلقون صرخة فرح طويلة ولكن وسـط هـذا الانطلاق يحطـم دييجـو قناعه. يمد يده إليه ويتأمله)

السكرتيرة : رائع

دييجو : ماذا تقولين ؟

السكرتيرة : إنك رائع في غضبك. إنك تعجبني هكذا أكثر.

دييجو : ماذا حدث ؟

السكرتيرة هـا هو ذا أمام نظـرك. لقد اختفت العلامـة عن بدنك. استمر، إنك على الطريق السليم.

دييجو هل شفيت ؟

السكرتيرة سأقول لك سرا صغيرا .. إن نظامهم رائع، وأنت على حق، ولكن ثمة خطأ في تركيب آلتهم.

دييجو لا أفهم.

السكرتيرة ثمـة خطأ ياحبيبـي... وبقدر ما تعي ذاكرتـي كان دائما يكفـي أن يتغلب رجل على خوفه ويثور حتى تبدأ آلتهم في الصليـل. لا أقول إنها تتوقف فمن أصعب الصعب وقوفها، ولكنها تصلصل وأحيانا تتعصلج حقا وتحرن.

دييجو لماذا تقولين لي هذا ؟

السكرتيرة أنـت تعلم أنـه مهما صمد إنسـان لعمل كالـذي أقوم به فستبقى له مكامن ضعفه. وها أنت ذا قد توصلت بمفردك لأن تعرف بعضا منها في نفسي.

دييجو هل كنت تستثنيني لو إنني لم أضربك ؟

السكرتيرة كلا. لقد حضرت للإجهاز عليك وفق القاعدة.

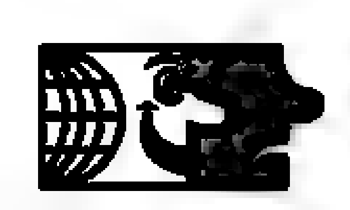
دييجو إني إذن الأقوى.

السكرتيرة أمازلت تشعر بالخوف ؟

دييجو كلا.

السكرتيرة إذن فأنا لا أسـتطيع أن أفعل شـيئا ضـدك. وهذا أيضا ضمـن المنهج، ولكني أسـتطيع أن أقول لـك إن هذه المرة الأولى التي ينال فيها هذا المنهج موافقتي عليه.

(تنسـحب في هدوء. دييجو يتحسـس جسده ويظل ينظر إلى يده، ثم يستدير فجأة في اتجاه التأوهات التي تسمع. يسـير في صمت نحو أحد المرضى الذي يضع كمامة على فمه. مشـهد صامت. دييجو يمد يده نحو الكمامة ويفكها إنه الصياد. يتبادلان النظر في صمت)



الصياد : (بعـد جهد) عمت مسـاء يا أخي. إني لـم أتكلم منذ مدة طويلة.

(دييجو يبتسم له)

الصياد : (رافعا يمناه إلى السماء) ما هذا ؟

(السـماء. أضيئت فعلا. تهب رياح خفيفـة يهتز لها أحد الأبواب وترفرف بعض الأقمشة المدلاة من النوافذ. الجموع تحيط بهما)

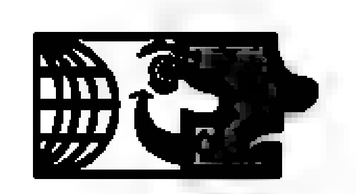
(الآن وقد خلعوا الكمامات عن أفواههم ورفعوا عيونهم إلى السماء)

دييجو : رياح البحر.

(ستار)

" " "

القسم الثالث



(يهرول سـكان قادش إلى الميـدان. دييجو واقف في مكان أعلـى منهم ويدير الأعمـال. ضوء قوي هـو الذي يجعل ديكورات الطاعون أقـل روعة للأبصار لأنها زادت اكتمالا وتكشف نسقها)

دييجو: أزيلوا النجوم المعلقة بأبدانكم.

(تزال النجوم)

دييجو: افتحوا النوافذ.

(تفتح النوافذ)

دييجو: هواء. هواء. اجمعوا المرضى.

(حركة)

دييجو: لم يعد ثمة مجال للخوف، هذا هو الشرط. كل من يستطيع الوقوف فليقف. لماذا تتراجعون ؟ ارفعوا الجباه. فهذه ساعة الفخر. ألقوا بالكمامات عن أفواهكم وصيحوا معي، إنكم لم تعودوا تشعرون بالخوف.

إيه أيتها الثـورة ! أنت مثال حي للرفض. (يرفعون الأذرع) أنت شرف هذا الشعب، هؤلاء الناس الذين كممت أفواههم، امنحيهم القوة من صيحتك.

الجوقة: أيها الأخ، إننا نسـتمع إليك ونحن البؤسـاء الذين يعيشون على الزيتون والخبز والذين تعد عندهم البغلة ثروة كبيرة، نحن الذين يلمسـون النبيذ مرتين في العـام: يوم الولادة ويوم الزواج، لقد بدأنا نشـعر بالأمل، ولكن الخوف القديم لـم يتجاوز بعد قلوبنا. إن الزيتـون والخبز يضيفان طعما للحياة، ومهما قل ما نملك فنحن نخشى أن نفقد كل شيء بفقدنا للحياة.

دييجو: سوف تفقدون الزيتون والخبز والحياة لو تركتم الأمور كما تسـير الآن. اليوم لا بد لكم من هزيمة الخوف لو شئتم أن تحتفظوا بالخبز فقط. ألا فلتستيقظي يا إسبانيا.



الجوقة: نحـــن فقراء وجهلة، لكن قد قالوا لنا إن الطاعون يســـاير مدار الســـنة، فلـــه ربيعه الذي ينمو وينطلـــق فيه، وصيفه الذي يزهر فيه ثم يأتي الشتاء، وها هو ذا يموت في أغلب الظن، ولكن أحقا جاء الشتاء أيها الأخ ؟ أهو الشتاء ؟ وهذه الريـــح التي هبت للتو، هل هي حقـــا رياح البحر ؟ لقد كنا دائما ندفع الثمن كاملا والنقد هو بؤســـنا فهل ينبغي حقا أن ندفعه الآن والنقد هو دماؤنا.

جوقة من النساء: نحن هنا لنذكركم أهو جدال آخر بينهم حول مسألة لا تهم إلا الرجال؟

يا للحظة التـــي تضيع ! بالقرنفل بهجـــة أيامنا، بالصوف الأســـود منحة نعاجنا، نذكركم باختصار بأنفاس إسبانيا. نحن ضعيفات ولا نستطيع شـــيئا منكم بعظامكم الكبيرة، ولكن مهما فعلتم فلا تنســـوا وســـط زحمة ظلالكم زهور أجسادنا.

دييجو: إنـــه الطاعون الـــذي امتص لحمنا وفـــرق الأحبة وأصاب بالذبول زهر الأيام. ينبغي أولا أن نكافح ضده.

الجوقة: أهو حقا الشـــتاء ؟ في غاباتنا مازالت أشجار الزان مغطاة بثمار صغيرة يكسوها الشمع وجذوعها تطن بالزنابير، كلا إنه ليس الشتاء بعد.

دييجو: فلتجتازوا شتاء الغضب.

الجوقة: ولكن هل نعثـــر على الأمل في خاتمة طريقنا، أم لا بد من الموت في يأس؟

دييجو: مـــن ذا الذي يتكلم عن اليأس، إن اليأس كمامة على الفم. إن رعد الأمل وبرق الســـعادة، همـــا اللذان يخرقان صمت هذه المدينة المتعلقة بســـياج. هبوا واقفـــين كما أقول لكم. إذا شئتم الاحتفاظ بخبز الأمل، أتلفوا شهاداتكم وحطموا زجاج المكاتب وغادروا طوابير الخوف، واهتفوا للحرية في جوانب السماء الأربعة.

الجوقة : نحن أشد الناس بؤســا، والأمل هو ثروتنا الوحيدة فكيف نحرم أنفسنا منه أيها الأخ. إنا جميعا نلقي بهذه الكمامات. (صيحــة خلاص كبيرة) آه، على الأرض الجافة ومن خلال شروخ الحرارة هذه هي المرة الأولى التي يهطل فيها المطر هــذا هو الخريف الذي يخضر فيه كل شــيء، وريح البحر المنعشة. إن الأمل يرفعنا كالموج.

(يخرج دييجو)

(يدخل الطاعون في نفس مستوى دييجو، ولكن من الجانب الآخر. يتبعه السكرتيرة ونادا)

السكرتيرة : مــا هــي هــذه الحكايــة ؟ هــل يثرثــرون الآن ؟ ضعوا كماماتكم.

(بعضهم في الوســط يعيدون وضــع الكمامة. ولكن بعض الرجــال لحقــوا بدييجو وأخذوا ينشــطون تحت ســيادة النظام)

الطاعون : لقد بدأوا يتحركون.

السكرتيرة : نعم كالعادة.

الطاعون : حسن، ينبغي تشديد الإجراءات.

السكرتيرة : فلنشددها إذن.

(تفتح مفكرتها التي تتصفحها بشيء من الملل)

نادا : على رســلك إذن، نحن نســير على جادة الطريق القويمة واتبــاع النظــام وعدم اتباعــه هذه هي خلاصــة قواعد الســلوك والفلسفة كلها، ولكن في رأيي ياصاحب الفخامة أننا نقصر في المضي إلى الغاية القصوى.

الطاعون : إنك كثير الكلام.

نادا : ذلك لأني متحمس، ولقد تعلمت كثيرا بالقرب منك. المحو هذا هو إنجيلي. ولكن حتى الآن لم تكن لدي أسباب قوية. أما الآن فلدي السبب الذي يخضع للنظام.



الطاعون : إن النظام يمحو كل شيء، إنك لست في الصف، خذ حذرك.

نادا : أذكر أنه كان ثمة نظم قبلك، ولكن كان لا بد من اختراع النظام العام الذي يقتضي كل حساب، ووضع الجنس البشري في القائمة السوداء وإبدال الحياة برمتها بفهرست مبوب، ووضع العالم تحت الطلب وتخفيض قيمة السماء والأرض في آخر الأمر.

الطاعون : عد إلى عملك أيها السكير. (إلى السكرتيرة) وأنت استمري.

السكرتيرة : بماذا نبدأ ؟

الطاعون : بمن يصادفك، فهذا أدعى للإرهاب.

(السكرتيرة تحذف اسمين، دقتا إنذار مكتومتان من طبلة، يسقط رجلان، تتراجع الجموع، والذين يعملون تجمد حركتهم وهم مرتاعون، حراس الطاعون يندفعون ويعودون يرسمون الصلبان على الأبواب ويغلقون النوافذ ويخلطون الجثث الخ... دييجو من أعماق المسرح بصوت هادئ)

دييجو : يحيا الموت، إنه لايخيفنا.

(الجميع في مد بعد تراجع، يعود الرجال إلى العمل، الحراس يتراجعون في حركة تؤدى بلا كلام هي عين حركة الجموع من قبل، ولكنها عكس الاتجاه، وتهب الريح حين تتقدم الجموع، ثم يتراجعون حين يعود الحراس للتقدم).

الطاعون : احذفي هذا.

السكرتيرة : مستحيل.

الطاعون : لماذا ؟

السكرتيرة : لم يعد يشعر بالخوف.

الطاعون : حسن، وهل يعرف ماذا سيحل به ؟



السكرتيرة : إن لديه بعض الشكوك.

(تحذف. دقات مكتومة من طبلـة. الجموع تتراجع، تكرار للمشهد السابق)

نادا : رائع. إنهـم يموتون كالذباب. آه لو اسـتطاعت الأرض أن تتفجر.

دييجو : (في هدوء) أنقذوا كل من يسقطون.

(تتقـدم الجموع. بالحركة السـابقة عينها ولكن في اتجاه عكسي تؤدي من دون كلام)

الطاعون : إن تمرده فاق كل حد.

السكرتيرة : نعم، كل حد.

الطاعون : لمـاذا تقولين ذلك في كآبة ؟ عسـى ألا يكون قد علم منك عزمنا.

السكرتيرة : كلا. لا بد أنه اكتشـف هذا بمفـرده. إنه صاحب بصيرة، هذا هو السبب.

الطاعون : إذا كان صاحـب بصيرة فأنا صاحب قـدرة. ينبغي اتخاذ تدابير أخرى، جاء دورك.

(يخرج)

(الجوقة تتخلص من الكمامات)

الجوقة : آه (تنهيدة ارتياح) إنه التراجع الأول. إن الوثاق ينحل وعناء السـماء قد زال وأنعشها النسـيم. لقد عاد خرير الينابيع التي جففها الطاعون بشمسـه السـوداء، إن الصيف يولي وسـنحرم من الكرم، عنبه وعرائشـه، ومن الشمام والفول الأخضـر والخس وبعدنا بمخبأ شـتوي، نحظى فيه بثمار القسـطل المشوية، وبشـائر الأذرة وحبها لايزال مخضرا وثمار الجوز التي يشـبه طعمها وهي غضة طعم الصابون واللبن أمام المدفئة.



النساء	:	نحن جاهـــلات ولكنا نقول إن هذه النعـــم ينبغي ألا ندفع لقاءهـــا ثمنا باهظا. في جميع جهـــات العالم وتحت حكم أي رئيـــس ســـوف تكون ثمة دائما حبة مـــن فاكهة طازجة في متناول اليد، وكأس من نبيذ الفقراء ومســـامرة نار ولو من غصـــون الكرم الجافة نتحلق حولها وننتظر أن تمر كل الطوارئ.
		(من بيت القاضـــي تخرج ابنته من النافذة وتجري لتختبئ وسط النساء)
السكرتيرة	:	(تهبط نحو الجموع)
		لعمري إن المرء ليظن أننا في ثورة. ومع هذا فليس ذلك هو الواقـــع، وأنتم تعلمون ذلك حق العلم. ثم إنه ليس الشـــعب الذي سيقوم بالثورة. فهذا أمر عفَّى عليه الزمن كل العفاء. لم تعد الثورات في حاجة إلى ثوار. إن الشرطة اليوم تكفي لكل شـــيء حتى لقلب الحكومة، أليس هذا أفضل على كل حال ؟ هكذا يســـتطيع الشعب أن يســـتريح، بينما تفكر له بعض العقول الراجحة وتقرر بدلا منه مبلغ الســـعادة التي تفلح له.
الصياد	:	سأسحق فورا هذه الحشرة المؤذية اللعينة.
السكرتيرة	:	ألا ترون أيها الأصدقاء العزاز أنه من الأفضل الوقوف عند هذا الحد، حينما يســـتقر أحد الأنظمة فإن ضرره أقل من ضـــرر تبديله، وحتى لو بدا لكم هـــذا النظام غير محتمل فمن الجائز أن تظفروا ببعض التيسيرات.
امرأة	:	أي تيسيرات تلك ؟
السكرتيرة	:	لســـت أدري أنـــا، ولكـــن أنتن يا نســـاء لا تجهلـــن أن أي اضطراب يدفع ثمنه وأن صلحا مشـــرفا أفضل أحيانا من نصر كاذب.
		(النساء يقتربن. بعض الرجال ينفصلون عن حلقة دييجو)

ديبجو: لا تستمعوا إلى ما تقول. لقد تم الاتفاق على كل حال.

السكرتيرة: ما الذي تم عليه الاتفاق ؟ إني أتحدث بما عليه الرشاد والحكمة ولا أعرف شيئا غير ذلك.

رجل: عن أي تسويات كنت تتكلمين ؟

السكرتيرة: لابد من التفكير بطبيعة الحال ولكن يمكن مثلا تكوين لجنة منكم. تعزز بأغلبية الأصوات إجراء الحذف، وستكون هذه اللجنة مطلقة اليد في السيطرة على هذا الدفتر الذي يتقرر الحذف بمقتضاه. لاحظوا أنني أتكلم على سبيل المثال.

(تهز الدفتر من طرف ذراعها.

أحد الرجال ينتزعه منها)

السكرتيرة: (واضحة الغضب)

أعد إليَّ هذا الدفتر. أنت تعرف أنه ثمين وأنه يكفي أن أحذف فيه اسم أحد مواطنيكم حتى يموت من فوره.

(الرجال والنساء يحيطون بماسك الدفتر فيسود الزحام والحركة)

- ها هو ذا قد أصبح في يدنا.

- لن يكون ثمة موتى.

- لقد نجونا.

(ولكن ابنة القاضي تندفع وتخطف الدفتر بعنف وتهرب في أحد الأركان وتتصفح تسجيلاته بسرعة وتحذف فيها شيئا. في بيت القاضي صرخة كبيرة وسقوط جسد. يندفع رجال ونساء نحو الفتاة)

صوت: آه أيتها اللعينة. أنت التي يجب حذفك.

(تمتد يد تنتزع الدفتر ويصفق الجميع ويجدون اسمها. يد تشطبه. الفتاة تسقط وهي تصدر صرخة)

نادا	:	(صارخـــا) إلى الأمام هيا، أيتحــد الجميع من أجل المحو، المسألة لم تعد مســألة القضاء على شيء بالحذف، بل محو المرء نفسه لنفسه، فهيا إلى معركة، المحو إنه التطهير العام. (يخرج)
رجل ضخم	:	(يمســك بالدفتر) حقــا هناك قدر مــن التطهير لابد من إجرائــه، فالفرصة جد مواتية لحــذف بعض أولئك الذين كانوا يأكلون السكر بينما نموت من الجوع. (الطاعون الذي عاد فظهر ويندفع في قهقهة عالية بينما تعود الســكرتيرة وتقف بجانبه. الجميع جامدون وقــد رفعوا العيون وثبتوا وهم في ترقب وسط المسرح، بينما ينتشر حراس الطاعون وعلامات النجمة إلى سابق عهدها)
الطاعون لدييجو	:	هاهــم أولاء. إنهم يقومون هم أنفســهم بالعمل. أتظن أن معاونتك لها جدوى؟
		(ولكن دييجو والصياد يقفزان إلى وسط المسرح، ويندفعان نحو الرجل حامل الدفتر ويصفعانه ويدفعانه إلى الأرض. دييجو يأخذ الدفتر ويمزقه)
السكرتيرة	:	لا فائدة. لدي نسخة أخرى.
		(دييجو يدفع الرجال إلى الجهة الأخرى)
دييجو	:	بسرعة إلى العمل. لقد غرر بكم.
الطاعون	:	حين يشعرون بالخوف فهو خوف على أنفسهم أما كراهيتهم فهي للآخرين.
دييجو	:	(يعود في مواجهة) لاخوف ولا كراهية، هذا هو انتصارنا.
		(تراجع متزايد من الحراس أمام رجال دييجو)
الطاعون	:	ســكون. أنا الذي يفسد طعم النبيذ ويجعل الفاكهة تجف. وإني لأقتــل الكرمــة إذا أردت أن تنبت العنــب، وأجعلها

تخضـــر إذا أردت لأعضائها الجافـــة أن تكون وقودا . إني أمقت أفراحكم البســيطة وأمقت هـــذا البلد الذي يدعي أهله أنهـــم أحرار مـــن دون ان يكونوا أغنيـــاء. إني أملك الســـجون والجلادين والقوة والدم. ســـوف تهدم الحديقة وفوق أطلالها ســـيعاني التاريخ سكرات الموت وسط صمت بديـــع لمجتمعات بلغت حـــد الكمال. الزموا الســـكون وإلا حطمت كل شيء.

(وســـط فرقعة مروعة يدور نضال يـــؤدى بالحركة من دون الكلام. يســـمع صوت صليل الأغلال وطنين ودقات الطبلة المنذرة. سيل من الشعارات ولكن كلما تكشف أن الغلبة هي لرجال دييجـــو يأخذ التلاحم في التراخـــي ويطغى هتاف الجوقة وإن لم يكن متينا على ضجة الطاعون)

الطاعون : (بحركة غضب شديدة) بقيت الرهائن.

(تصدر منه إشـــارة فإذا بحراس الطاعون يغادرون المسرح بينما يعود الآخرون للتجمع)

نادا : (من فوق القصر) ســـيظل دائما شـــيء يتبقى. إن كل شيء يســـتمر في عـــدم الاســـتمرار ومكاتب مســـتمرة، كذلك ســـوف تنهار المدينة وتنفجر السماء ويهجر الناس الأرض ولكن المكاتب ســـتظل تفتح في ســـاعة محـــددة لكي تقوم بـــإدارة العدم. الأبد هو أنا وجنتي بها أرشـــيفها وأختامها ونشافها .

(يخرج)

الجوقة : إنهـــم يهربون. انتهى الصيف بالنظر، يحدث إذن أحيانا أن ينتظر الإنســـان وحينئذ حلال للنصر أجساد نسائنا تحت وابـــل الحب، ها هي الأحضان الهنيئة الحلوة الدافئة كأنها عناقيـــد العنب في مطلع الخريف، تطـــن حولها الزنابير، والبطون أجـــران تتدفق عليها خيرات الكرم وقطف الثمار





يتأجج على قمم الأثداء الثملة. إيه ياحبي إن الرغبة تنفجر كالثمرة الناضجة وأمجاد الأجساد تتدفق أخيرا وفي جميع أرجاء السماء تمتد بالزهور أيد لا يدرك سرها، ويسيل نبيذ ذهبي من نافورة لا تنضب. هذه هي أعياد النصر. فلنبحث عن جميع نسائنا.

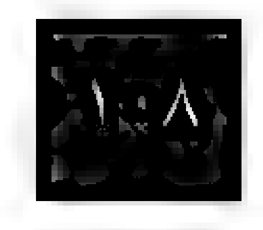
(تحمل إلى المسرح في صمت نقالة للمرضى ترقد فيها فيكتوريا).

ديجو (مندفعا نحوها) آه ! هذا يدفع إلى اشتهاء القتل أو الموت. (يصل إلى جوار الجسد الذي بدا بلا حراك) آه أيتها المنتصرة الرائعة الضارية مثل الحب، أديري قليلا وجهك نحوي، عودي يا فيكتوريا. لا تذهبي إلى هذا الجانب الآخر من العالم حيث لا أستطيع أن ألحق بك. لا تتركيني. إن الأرض باردة ياحبي، ياحبي. تماسكي وتمسكي بهذا الطرف من العالم حيث مازلنا قائمين. لا تدعي نفسك تغرق، فلو مت فستصبح الدنيا سوداء وسط الظهيرة فيما تبقى لي من أيام.

جوقة النساء كلامنا الآن صدق، حتى الآن لم يكن على سبيل الجد. فالأمر يتعلق في هذه الساعة بجسد يتألم ويتلوى، كم انبعثت لنا صرخات هي أبدع نطق للإنسان ترحب بالموت وإذا هذا الموت الذي نناديه يعمد إلى تمزيق حلق هذه التي نحبها. ثم يثوب الحب ولكن في اللحظة التي يكون فيها الأوان قد فات.

فيكتوريا (تئن)

ديجو بل هذا هو الأوان. إنها تنهض، دعيني أركِ من جديد، واقفة أمامي مستقيمة العود كالمشعل، تتواثب من شعرك ألسنة لهيبه الأسود، ويسطع الحب على وجهك فقد استضأت بسناه في ظلام المعركة، ذلك أنني حملتك معي إليها، فإن قلبي يتسع لكل احتماله.





فيكتوريا	:	ستتسـاني يا دييجو، لاريب في ذلك، فإن قلبك لن يتسع لحمـل الفراق كما لم يتسع لحمل الشـقاء. آه ! إن الموت لعذاب مروع حين يعلم المرء أنه سيذهب في طي النسيان. (تستدير)
دييجو	:	لن أنساك. سوف تكون ذاكرتي أطول من حياتي.
جوقة النساء	:	إيه أيها الجسـد المعذب، كنت من قبل مشتهى العيون، أيها الجمال الملكي الـذي يعكس ضوء النهار، إن الرجل يصرخ من نشواته للمستحيل، أما المرأة فتتألم لما هو جائز وقوعه. انحن عليها يا دييجو، واصرخ بألمك واتهم نفسك، هذه هي لحظة الندم أيها الهارب من سـاحة الشرف، هذا الجسد كان وطنـك الذي من دونه لن تصبح شـيئا، وهيهات لوفاء ذاكرتك أن يكفر عن خطاياك. (يصـل الطاعون بهدوء بالقرب من دييجو ولا يفصلهما إلا جسد فيكتوريا)
الطاعون	:	هل تخلي منها يدك ؟ تتقصك القوة وعيناك زائغتان أما أنا فلي ما للمقدرة من عين ثابتة. (دييجو ينظر إلى جسد فيكتوريا بيأس)
دييجو	:	(بعد فترة صمت) دعها تعش واقتلني.
الطاعون	:	ماذا ؟
دييجو	:	إني أعرض عليك البدل.
الطاعون	:	أي بدل ؟
دييجو		أريد أن أموت بدلا منها.
الطاعون	:	هذه إحدى الأفكار التـي تراود المرء حين يكون متعبا، هيا لـن يربط قلبك فداؤك لها، فهي قد ذاقت الآن أبلغ عذاب في الاحتضار، فلنقف عند هذا الحد.
دييجو	:	افتراضـي هو إحـدى الأفكار التي تـراود لا من يكون قد تعب، بل من يكون هو الأقوى.



الطاعون : انظر إلي، إنني القوة نفسها.

دييجو : اخلع زيك الرسمي.

الطاعون : إنك لمجنون.

دييجو : اخلع ملابسك. حين يخلع رجال القوة ملابسهم فإن مرآهم لا يكون جميلا.

الطاعون : ربما. ولكـــن قوتهم كامنة في اهتدائهـــم إلى اختراع الزي الرسمي.

دييجو : أمـــا قوتـــي أنا ففي رفض مثـــل هذا الزي. إني متمســـك بالصفقة التي عرضتها عليك.

الطاعون : فكر على الأقل. إن للحياة جوانبها الطيبة.

دييجو : حياتي ليســـت شيئا. والذي يعول عليه هو مبررات حياتي، إني لست كلبا.

الطاعون : الســـيجارة الأولى أفلا تعني عندك شـــيئا ؟ ورائحة الطين الجاف ســـاعة الظهيرة، وقـــد ملأت ألوانـــه الحفر على جنبات السور، وأمطار المساء والمرأة التي تشوق إليها وهي ماتزال مجهولة لك، وكأس النبيذ الثانية، أكل هذا لا يعني لك شيئا؟

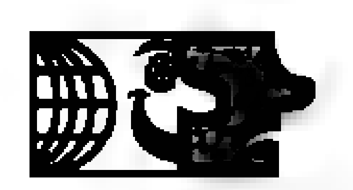
دييجو : قـــد يكون فـــي هذا كله بعـــض المتعة، ولكن هـــذه الراقدة ستعيش أفضل مني.

الطاعون : كلا، لو كففت عن الانشغال بالآخرين.

دييجو : هذا الطريق الذي أســـير فيه إن ســـلكه إنسان امتنع عليه التوقف حتى لو أراد ذلك. لن تفلت مني.

الطاعون : (مغيرا لهجته) أصغ إليَّ. إذا عرضت عليَّ حياتك بدلا من حياة هذه فســـأضطر لقبولها وستعيش هذه المرأة. ولكني أعرض عليك صفقة أخرى.

أمنحـــك حياة هذه المـــرأة وأترككما تهربـــان أنتما الاثنان بشرط أن تتركاني أسوي أموري مع هذه المدينة.



دييجو : كلا، إني أعرف قدراتي.

الطاعون : في هذه الحالة سـأكون صريحا معـك. لا بد لي أن أكون سـيد كل شيء والألم أصبح سيد كل شيء. وإذا أفلت مني فـإن المدينة بأسـرها تفلت مني، تلك هـي القاعدة، إنها قاعدة قديمة لا أعرف ممن ورثناها.

دييجو : أما أنا فإني أعرف جواب سـؤالك، إنها موروثة من أغوار الحقـب. إنها أكبر منك وأعلى من مشـانقك، إنها قاعدة الطبيعة. لقد انتصرنا.

الطاعون : ليس بعد، مازال هذا الجسـد لي، إنـه رهينتي، والرهينة هـي قوتي الأخيـرة، انظر إليه لو أن لامـرأة وجه الحياة فهي هذه المرأة. إنها تستحق الحياة، وأنت تريد أن تجعلها تعيش، وأنا مكره على أخذها منك، ولكن هذا سـيكون إما فـي مقابل حياتك أنت وإما فـي مقابل حرية هذه المدينة، لك الخيار.

(دييجو ينظر إلى فيكتوريا. في عمق المسرح همهمة أصوات تعلوها الكمامات)

دييجو : (يستدير نحو الجوقة)

ما أشد نكبة الإنسان بالموت.

الطاعون : نعم هو نكبة.

دييجو : ولكنه نكبة للناس جميعا.

الطاعون : أيها الأحمق، إن عشر سنوات في حب هذه المرأة أفضل من قرن من الحرية لهؤلاء الناس.

دييجو : حب هـذه المرأة هو مملكتي أنا، أسـتطيع أن أفعل بها ما أشـاء. أما حرية هؤلاء الناس فهي ملك لهم، ولا أستطيع التصرف فيها.

الطاعون : لا سـعادة لـك من دون ايـذاء الآخرين. تلـك عدالة هذه الأرض.

دييجو	:	إنني لم أولد لأقر مثل هذه العدالة.
الطاعون	:	مــن ذا الذي يطلب إليك إقرارها ؟ إن نظام العالم لا يتغير وفق رغباتك، وإذا أردت له أن يتغير فتخلَّ عن أحلامك ولا تحسب الا حساب ما هو واقع.
دييجو	:	كلا إني أعرف الوصفة. لا بد من القتل لإلغاء جريمة القتل، واللجــوء إلى العنف لعلاج الظلــم. منذ قرون وهذه الحال تدوم، ومنذ قرون ساد جنسك يملأون بالقيح جراح العالم بحجــة علاجهــا، ويداومون مع ذلك في إطــراء وصفتهم مادام أحد لا يضحك ساخرا منهم في وجوههم.
الطاعون	:	إن أحدا لا يضحك لأنــي أنفذ. إني رجل فعال. فعّال بكل تأكيد وعملي مثل الفأس.
الطاعون	:	إن الإنسان يكفيه على الأقل أن يتأمل الناس ليدرك أن كل عدالة صالحة لهم.
دييجو	:	منذ أن أغلقت أبواب هذه المدينة سنحت الفرصة كاملة لأن أتأملهم.
الطاعون	:	إذن أنت تعــرف الآن أنهم يتركونك دائما بمفردك والرجل الذي يعيش بمفرده لا بد أن يموت.
دييجو	:	كلا، هذا خطأ، لو كنت وحيدا لأصبح كل شيء سهلا. ولكن سواء رضوا أم لم يرضوا سيظلون معي.
الطاعون	:	قطيــع لا يشــرح النفس فــي الحقيقة، ولكن تبــدو عليه القوة.
دييجو	:	أعرف أنهم ليسوا أطهارا، وأنا كذلك مثلهم.
الطاعون	:	زمن العبيد.
دييجو	:	زمن الرجال الأحرار.
الطاعون	:	إنك لتدهشني. عبثا بحثت عن الأحرار، أين هم ؟
دييجو	:	إما أحياء في سجونك وإما أموات في الحفر التي شققتها



لتكديس الجثث. والعبيد هم الذين يتربعون فوق العروش.

الطاعون اجعل رجالك الأحرار يرتدون زي الشـــرطة، وستعرف ماذا يصبحون.

دييجو صحيح أنه يحدث لهم أن يصبحوا جبناء قساة ولهذا لاحق لهم كما لاحق لك في التســلط، ما من رجل يتوافر له من الفضائل ما يبرر التسليم له بالسلطان المطلق، ولهذا أيضا كان حق هؤلاء الرجال هو حقهم في الرحمة التي ســتحرم أنت منها .

الطاعون الجــبن هو الحياة كما يحيونها، صغار النفوس، أرباب عوز وقعود عند السفح من العجز عن بلوغ القمم.

دييجو وإني لأتمسك بهم وهم بين بين في مثل هذه السفوح، فإذا لم يكن لي إخلاص للواقع المهين الذي أتحمله معهم فكيف يكـون لي إخلاص لمن هو عندي أكبر مقاما وأشــد معاناة للوحدة ؟

الطاعون إن الإخــلاص الوحيــد الذي أعرفه هو الاحتقار، (يشــير إلى الجوقة المتهالكة في الســاحة) انظر ثمة ما يدعو إلى ذلك.

دييجو إنــي لا أحتقر إلا الجلادين، ومهمــا فعلت فهؤلاء الرجال سيكونون أكبر منك، وإذا حدث لهم مرة أن يقتلوا فهذا ليس إلا من جنون عابر. أما أنت فتذبح باسم القانون والمنطق، لا تهزأ من رؤوســهم المطأطأة، فمنذ قرون ومذنبات الخوف تمر مــن فوقهم. ولا تضحك من ســمات الخــوف البادية عليهم، فمنذ قرون وهم يموتون ويتمزق حبهم.

إن أكبر جرائمهم ســيتوافر لها العذر دائما، ولكني لا أجد عذرا للجريمة التي كانت دائما تقترف ضدهم، بدا لك في النهاية أن تقننها لهم وسط النظام القذر الذي أتيت به أنت (الطاعون يتقدم نحوه) إني لن أرخي نظري.

الطاعون	لـــن ترخيه، هذا ما تراه عيني إذن أفضل أن أقول لك إنك انتصرت في الاختيار النهائي. لو أنك تركت لي هذه المدينة لضاعت منك هذه المــرأة وضعت معها. أما الآن فإن لهذه المدينة جميع فرص التحرير. وكما ترى يكفي لذلك أن يأتي مجنـــون مثلك. المجنون يموت بلا ريـــب. ولكن في النهاية وســـواء قصر أو طال الأمد ســـتكتب لهـــم النجاة (ظلام)، وهؤلاء الباقون غير جديرين بالنجاة.
دييجو	إذن سيموت المجنون.
الطاعون	آه. هل هذا لا يرضيك ؟ ليس هذا ظني، إنها وفق التقاليد من قديم، لحظة من التـــردد أمام الموت، ثم تكون الكبرياء هي الأقوى.
دييجو	كنت متعطشـــا للشـــرف، فهل لا أجد الشرف اليوم إلا بين الموتى ؟
الطاعون	لقد ســـبق لي أن قلتها، إن الكبرياء تقتلهم. ولكن هذا أمر مضن بالنسبة إلى الرجل المسن الذي أصبحته. (بصوت ينم عن القسوة) استعد
دييجو	إني مستعد
الطاعون	هـــا هي العلامات. إنها تؤلم (دييجـــو ينظر في ارتياح إلى العلامات التي ظهـــرت من جديد عليه) لتتعذب قليلا قبل أن تمـــوت. تلك علـــى الأقل هي قاعدتـــي. حين تحرمني الكراهيـــة يكون عـــذاب الآخرين حينئذ مثـــل الندى. تأوه قليـــلا فهذا يريحك، ودعني أنظـــر إليك وأنت تتعذب قبل أن أغادر هذه المدينة (ينظر إلى السكرتيرة) هيا، أنت، إلى العمل الآن.
السكرتيرة	نعم، إن لم يكن ثمة مفر.
الطاعون	أنت قد تعبت، هيه.

(السكرتيرة تجيب بنعم بإشارة من رأسها، وفي اللحظة نفسها

تغير مظهرها وتصبح امرأة شمطاء تحمل قناع الموت)

الطاعون : كان ظنــي دائما أنك لا تحملين قــدرا كافيا من الكراهية، ولكــن كراهيتي أنا في حاجة إلى ضحايا جدد. أســرعي بهذه الضحية، ثم نبدأ من جديد في مكان آخر.

السكرتيرة : إن الكراهية لا تسندني في الواقع مادامت ليست من صميم عملــي. ولكن الذنب ذنبك على نحو ما. فمن كثرة ما يعمل المرء على البطاقات ينسى أن يترك لعاطفته القياد.

الطاعون هذا مجرد كلام في كلام، وإذا كنت تبحثين عن سند (تشير إلــى دييجو الذي جثا على ركبتيــه) خذيه في غمرة الفرح بالتحطيم. ذلك من صميم عملك.

السكرتيرة : لنحطم إذن، ولكني لست على راحتي.

الطاعون : باسم ماذا تناقشين أوامري ؟

السكرتيرة : باســم الذكرى. فلدي بعض الذكريــات القديمة. لقد كنت حرة قبلك وحليفة لمشــيئة الصدف. حينئــذ لم يكن أحد يكرهني، وكنت أنا التي تختتم كل أمر وتثبت الحب وتصوغ لكل أقــدار قوالبهــا وكان لي اســتقرار. وهكذا أصبحت يــدي لا ينجم منها خير بعد أن كانت تجود بالعون. ولكنك وضعتني في خدمة المنطق والنظام. وهكذا أفســدت اليد التي كانت أحيانا تتقدم للإنقاذ.

الطاعون : من ذا الذي يطلب منك إنقاذا.

السكرتيرة هــؤلاء الذين هم أقل عظمــة من الألم. الجميــع تقريبا. عهدت معهم أن أعمل برضاهم. فكان لي مكان في الوجود يوافــق خصلتي. أما اليوم فإني أفرض عليهم إرادتي قهرا فأصبح الجميع يكرهونني إلى آخر رمق في حياتهم، وربما كان هذا هو الســبب في أنني كنت أحب هذا الذي تأمرني بقتلــه. لقد اختارني اختيارا حرا وأعرب لي عن إشــفاقه عليّ بالأسلوب الذي يوافق خصلته. إني أحب هؤلاء الذين



يضربون لي المواعيد.

الطاعون : حذار من إثارتي. نحن لسنا في حاجة إلى الشفقة.

السكرتيرة : من ذا الذي يحتاج إلى الشفقة غير هؤلاء الذين لا يرحمون أحدا. وحين أقول إنني أحب هذا فإني أقصد أنني أحسده، فالحب عندنا نحن الغزاة لا يتجلى إلا في صورة تعسة، أنت قلت ذلك وتعرف أن هذا هو الذي يجعلنا نستحق أن يرثى لنا بعض الرثاء.

الطاعون : آمرك بالتزام الصمت.

السكرتيرة : أنت تعرف ذلك جيدا، وتعرف كذلك أنه من كثرة ما يقتل المرء ينساق إلى حد براءة هؤلاء الذين يقتلهم. آه ! ولو للحظة واحدة دعني أوقف هذا المنطق الذي لا ينتهي وأحلم أنني أخيرا أستند إلى جسد. إني مججت الظلال وأحسد هؤلاء البؤساء جميعا. نعم أحسد حتى هذه المرأة (تشير إلى فيكتوريا) التي لن تسترد الحياة إلا لترسل الصرخات المتوحشة، إنها على الأقل سوف تستند على آلامها.

(دييجو يسقط ويكاد يفترش الأرض، الطاعون ينهضه)

الطاعون : قف أيها الرجل. إن النهاية لايمكن أن تأتي من دون أن تقوم بفعل ما يلزم. وأنت ترى أنها في اللحظة الراهنة تستسلم للعواطف. ولكن لا تخش شيئا. سوف تفعل ما يلزم فهذا ضمن القاعدة والوظيفة. إن الآلة تصلصل بعض الشيء هذا كل ما في الأمر. وقبل أن تحزن وتتعصلج انعم بسعادتك أيها الأحمق فإني أرد لك هذه المدينة.

(صيحات الفرح من الجوقة. الطاعون يستدير نحوهم) نعم، إني ماض ولكن لا تتصروا فإني راض عن نفسي. هنا أيضا كان عملنا على ما يرام، إني أحبُ الضجة التي تثار حول اسمي. وأعرف الآن أنكم لا تنسونني، انظروا إليّ.



انظروا للمرة الأخير. القوة الوحيدة في هذا العالم. تعرفوا على سيدكم الحق وتعلموا الخوف. (يضحك) من قبل كنتم تزعمون أنكم تخافون سـيدكم وأقداره، وكان سيدكم هذا فوضويا يخلط بين الأنواع، يحسب أن في مقدوره أن يكون جبارا وطيبا في آن واحد، وكان مسـلكه يخلو من الإصرار والإخـلاص، هذا ما ينبغي الجهر بـه، أما أنا فقد أخذت الجبروت وحده، اخترت السـيطرة وأنتم تعرفون الآن أنها أدهى من الجحيم.

منذ آلاف السنين، وأنا أملأ مدنكم وحقولكم بحفر تتكدس فيها الجثث. وبفضل موتاي زادت خصوبة الرمال في ليبيا وإثيوبيـا السـوداء وأرض فارس مازالت دسـمة من عرق ضحاياي. ولقد ملأت أثينا بنيران التطهير وأشـعلت على شـواطئها آلاف الحرائق الجنائزية. وغطيت بحر اليونان برماد البشـر حتـى أضحى لونـه كابيا. والآلهـة، الآلهة المسـاكين أنفسـهم أصابهم التقزز من ذلـك حتى أعماق قلوبهم، وحين حلت الكنائس محل المعابد ملأها فرسـاني السود بالأجساد الصارخة. على القارات الخمس وعلى مر القرون قتلت من دون هوادة ومن دون ضيق.

لا لم يكن عملا بالغ السـوء، طبعا كان له معنى ولكن ليس المعنى كله في تمامه، أقول لكم لو سألتم رأيي إن نزول الموت بإنسـان قد يبعث على الانتعاش ولكنـه لايعد ربحا جنيا، والخلاصة أن قيمة إنسـان تسلب منه الحياة فيصبح ميتا هي أقل فوزا من قيمة إنسـان تسـلب منه الحرية فيصبح عبدا، كذلك كان المثل الأعلى هو الظفر بفضل نزول الموت بأقلية يتم اختيارها اختيارا حسـنا، وخطة عملنا اليوم قد بلغـت كمالها، لذلك فبعـد أن قضينا بالقتل والإذلال على القدر الكافي من الناس هنا فسندفع شعوبا بأكملها للجثو على الأرض، فلا جمال ولا مجد يقف في سبيلنا سننتصر

على كل الحوائل.

السكرتيرة : سوف ننتصر على كل الحوائل ما عدا عزة النفس.

الطاعون : ربما تصاب عزة النفس بالإعياء والإنسان أذكى مما يظن به، (من بعيد هرج ومرج وأصوات أبواق) أنصتوا لهذه الضجة، إن حسن حظي يسعفني من جديد بفرصة للبرهان على صدق حكمي، ها هم أولاء سادتكم القدامى الذين ستجدونهم في عمى عن جراح الآخرين وفي نشوة الطرب لسيطرة الجمود والنسيان. ولن ينفد لكم صبر على رؤية السخافة تنتصر بلا امتشاق لسلاح. إن القسوة تلد الثورة، أما الاستهزاء بالعقل فيثبط الشجاعة، المجد للأغبياء لأنهم هم الذين يمهدون لي الطريق، فهم عماد قوتي وأملي. ربما سيأتي يوم تبدو لكم فيه كل تضحية بلا جدوى وتخمد فيه أخيرا لثوراتكم القذرة صرخاتها التي لا تنقطع، في هذا اليوم سوف أسود وسط عبودية في صمتها النهائي، (يضحك) إنها مسألة تثبت بالرأي أليس كذلك ؟ ولكن ثقوا بهذا فإن لي جبينا مختصرا شأن العنيدين.

(يسير نحو غيابة المسرح)

السكرتيرة : إني أكبر منك سنا وأعرف أن حبهم له أيضا تشبثه.

الطاعون : الحب ؟ ما هو الحب ؟

السكرتيرة : انهضي أيتها المرأة، فقد حل بي الإعياء، ولا بد من إنهاء هذا الأمر.

(تنهض فيكتوريا، ولكن دييجو يسقط في اللحظة ذاتها السكرتيرة تتراجع قليلا في الظل. فيكتوريا تندفع نحو دييجو).

فيكتوريا : آه يا دييجو، ماذا فعلت بسعادتنا ؟

دييجو : الوداع يافيكتوريا إني راض.

فيكتوريا : لا تقل ذلك ياحبي، هذا كلام الرجال، كلام الرجال المروع.

(تبكي) ليس لأحد الحق في أن يكون راضيا بالموت.

دييجو : إني راض يافيكتوريا. لقد فعلت ما ينبغي أن أفعل.

فيكتوريا : كلا. كان لابد من تفضيلي على السماء ذاتها. كان ينبغي تفضيلي على الأرض كلها.

دييجو : إن موقفي من الموت موقف سليم، وفي ذلك قوتي ولكنها قوة تفترس كل شيء وليس للسعادة مكان فيها.

فيكتوريا : ماذا كانت تجديني قوتك ؟ لم أحب قوة بل أحببت رجلا.

دييجو لقد امتصت هذه المعركة دمي، لم أعد رجلا ومن الحق أن أموت.

فيكتوريا : (تنطرح عليه) إذن احملني معك.

دييجو : كلا، إن هذا العالم في حاجة إليك. إنه في حاجة إلى نسائنا لكي يعلمن الناس الحياة. أما نحن فقد كنا دائما غير قادرين إلا على الموت.

فيكتوريا : أفما ترى أنه كان من أبسط الأمور أن نتحاب في صمت، وأن نتألم كما ينبغي أن نتألم، لقد كنت أفضل أن يردك الخوف.

دييجو : (ناظرا إلى فيكتوريا)

لقد أحببتك من أعماق نفسي.

فيكتوريا : (صائحة) هذا كان لا يكفيني، كلا ليس فيه كل الكفاية في انتفاعي بنفسك وحدها.

(السكرتيرة تقرب يدها من دييجو، مشهد احتضار صامت يبدأ. النساء يندفعن نحو فيكتوريا ويحطن بها)

النساء : تعسا له، تعسا لكل من يهجرون أجسادنا.

يالبؤسنا، نحن بالأخص اللاتي أصبح الهجر نصيبهن، وبقي لنا على مر السنين أن نتحمل هذا العالم الذي زعم الرجال من غرورهم أنهم قادرون على إصلاحه. آه، مادام كل ما

نملك قد اســتحال إنقاذه فلنتعلم كيف نصون بيت الحب، فليأت الطاعون، فلتأت الحرب في حمى الأبواب الموصدة سـوف ندافع وأنتم إلى جانبنا حتـى النهاية، وحينئذ بدلا من هذه الميتة في وحـدة تتناهبها صرعات المبادئ وتزخر بالشـعارات سـوف تعرفون ميتة الجماعة معا، أنتم ونحن ملتحمون معا في عناق مع الحب له ضراوته، ولكن الرجال يفضلـون اعتـاق المبادئ، كل منهم يفر مـن أمه وينفصل عـن حبيبته، مندفعا بحثا عن المغامـرة، مطعون بلا جرح مذبوح بلا سكين، صائد خيالات ومنشد متوحد ينادي إليه تحت سماء صامتة، عودة لقاء مستحيلة، يمضي من وحدة فتتلقفه وحدة إلى أن يبلغ آخر انقطاع له عن العالم، الموت في تيه الصحراء.

(دييجو يموت)

(النساء يولولن في حين تهب الرياح بمزيد من القوة)

السكرتيرة : لا تبكين أيتها النساء. إن الأرض حلوة لهؤلاء الذين أحبوها كثيرا.

(تخرج)

(فيكتوريا والنســاء ينتحين جانبا حاملات دييجو، وتتجدد الضوضاء في عمق المسرح. تسمع موسيقى جديدة ويسمع صراخ نادا على التحصينات).

نادا : هـا هي الزمـرة القديمة قد عادت، حـكام الماضي حكام الأبـد، المتحجـرون، مـلاذ الاطمئنـان والراحة، أشـباه الطرق المسـدودة، أصحاب الجلود البراقة، أرباب التقاليد الراسـخة نجمهم في صعود ووجوه ناعمة اجتث شـعرها من منبته، إن الصدور كلها تتنفس الصعداء، فقد زال الغم بطبيعة الحـال. ها هم المتكلفون فـي حوانيتهم الصغيرة بتفصيل ثياب الكراهية، سـيلبس كل منكم حسب مقاسه،



ولكــن لاتضطربوا فإن خطتهم المثلى، بدلا من أن يســدوا أفواه الذين يصرخون بآلامهم يعمدون هم إلى سد آذانهم، كونوا صما بعد أن كنتم خرســا، انتبهوا، إن الذين يكتبون التاريخ قد عادوا، ستكون أول عنايتهم بالأبطال، سيهيئون لهــم مقاما رطبــا مريحا تحت بلاط قبر، لا تشــتكوا من ذلــك فمن الحق أن الناس فوق هــذا البلاط خليط. (في عمق المسرح حفلات رســمية تؤدى بالحركة بدون الكلام) تأملوهم لتروا ما ظننتم أنهم فاعلوه. إنهم يلبسون النياشين وولائــم الكراهية معدة علــى الــدوام. إن الأرض المنهكة مغطاة بخشب الموت على المشانق، ودماء من أطلقتم عليهم لقب الحكمــاء العادلين أقطاب الزمــان لاتزال تبرق على جدران هذا العالم. أمــا أصحابنا هؤلاء فماذا هم يفعلون الآن في ظنكم ؟ إنهم يلبســون النياشين.. افرحوا فسوف تشنف آذانَكم خطبُ التهنئة بنجاحكم في الامتحان، ولكن قبل أن يدفع بالمنصة إلى الأمام دعوني أســمعكم خلاصة خطبتــي أنا، إن الذي أحببته رغم أنفه قد مات مســروقا منــي (الصياد يندفع نحو نــادا فيمنعه الحراس) أرى أيها الصياد أن الحكومات تتعاقب وتمر، ولكن الشــرطة تبقى، إذن فثمة عدالة.

الجوقة : كلا، ليس ثمة عدالة ولكن ثمة حدود. كل من يزعمون أنهم طلقــاء من القواعد. وكذلك كل من يريدون أن يجعلوا لكل شيء قاعدة، كلا الطرفين على حد سواء قد جاوز الحدود، افتحوا الأبواب، وليأت الريح والثلج لفلك هذه المدينة حتى تبرق.

(من الأبواب التي تفتح تهب الرياح مطردة القوة)

نادا : ثمة عدالة، ولكن العدالة التي يقيمونها تشمئز منها نفسي، نعم ســتبدأون من جديــد، ولكن الأمر لــم يعد يعنيني. لا تتوقعوا مني أن أقدم لكم نفسي لكي يقع في أيديكم من



كملت ذنوبه، فإني لا أعد كآبة المذنبين من الفضائل التي خلقت لها. أيها العالم الذي عرفناه من سالف الزمان، ينبغي لك أن ترحل. إن جلاديك قد أصابهم الإعياء وكراهيتهم قد برد بإفراط زوارها، إني عليم بأشياء كثيرة حتى الاحتقار، وقد ولى أوانه وانقضى. وداعا أيها الناس الطيبون، ستدركون ذات يوم ما أقوله لكم الآن، لا تطيب الحياة عند حب الإنسان شيئا لايعتد به.

(وسط الرياح التي تهب كالعاصفة نادا يعدو إلى الشاطئ ويلقي بنفسه في البحر. الصياد يجري خلفه)

الصياد : لقد سقط. والأمواج الثائرة تضربه وتخنقه في لبدتها. إن هذا الفم الكاذب يمتلئ بالملح وسيلوذ أخيرا بالصمت. انظروا البحر الثائر له الآن لون شقائق النعمان. إنه ينتقم لنا وغضبه هو غضبنا. إنه يدعو إلى اتحاد جميع أبناء البشر بالبحر، إلى اجتماع المنعزلين، إيه أيتها الأمواج ! إيه أيها البحر يا موطن الثائرين ! هذا هو شعبك الذي لن يستسلم أبدا، إن الموجة الكبرى التي تكتمها في أعماقك وترضعها بمرارة مياهك سوف تطيح بمدنكم البشعة.

(ستار)

" " "


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET